

امانثا كريستي



الرجل الرابع



أجاثا كريستي

{1976 – 1890}

– الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى 103 لغات.

– بيع من كتبها أكثر من 900 مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

– كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصبها ملكة عليهم جميعاً. تميّزت أيضاً بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديون، ولكنهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمّنت أيضاً أهدافاً إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

الرجل الرابع

The Big Four

إذا انفرد كل واحد من الأربعة الكبار الذين ضمّتهم هذه الرواية واستقل في تخطيطه فسيكون الأمر صعباً للغاية.

أما إذا اجتمع الأربعة معاً فلا تقلّ عزيمتهم أمام أية صعوبة. الأربعة الكبار هم : رجل صيني الجنسية ألمعي، ومليونير، وعالمة فرنسية، وأستاذ ماهر في التكر وتدبير طرق الهروب. الأربعة يتآمرون على تنظيم جريمة قتل تنظيماً محكماً خبيثاً حتى إن «هركيول بوارو» نفسه تستعصي عليه سلسلة جرائم القتل التي يحاول تتبعها حتى يصل إلى حل فيها، ويبدو أن هذه القضية المركبة ستكون النهاية الأخيرة للقضايا التي ينشغل بها...

ثمن الكتاب

ISBN 995338391-X



9 789953 1383910

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريال
سوريا	150 ل.س.	عمان	1.5 ريال
الأردن	3 دنانير	مصر	10 جنيهات
الجزائر	300 دينار	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	3 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	العراق	4000 دينار

الرجل الرابع

بونارد الأسطه

يقدم
الرواية المعرّبة

الرجل الرابع (39)

تأليف الكاتبة والأديبة العالمية
أجاثا كريستي

تعريب الأديب
عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

الإدارة العامة والتوزيع

فاكس 00 961 9 212 665

تليفون 00 961 9 212 666

ص.ب 374 جونية - لبنان

Email:info@inter-press.org

www.inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي - دار البشير

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعاً باتاً نقل أي جزء من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

تأليف
Agatha Christie

الاسم الأصلي للكتاب
The Big Four
(1927)

الغلاف بريشة الفنان العالمي
عبد العال

جميع حقوق الترجمة محفوظة لشركة دار ميوزيك للمصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
وذلك بموجب الإقرار والتنازل الموثق لدى وزارة العدل - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق
مكتب شمال القاهرة - توثيق مصر الجديدة - جمهورية مصر العربية - تحت رقم 2390 تاريخ 1985/06/16
ولا يحق لأي كان نشر أي قسم أو جزء من هذا الكتاب وبإية وسيلة كانت ...
إلا بعد أخذ موافقة خطية من الناشر

الرجل الرابع

أهم الشخصيات :

- "هركيول بوارو" : رجل مخابرات سرية.
- "هاستنجز" : صديق "بوارو".
- "ايب رايلاند" : رجل أمريكي ثري.
- "جاب" : مفتش شرطة بإدارة "سكوتلانديارد".
- "جون أنجلز" : موظف مدني متقاعد.
- "مايرلنج" : شرطي يعمل بقلم المخابرات.
- "ميدوز" : مفتش بالشرطة.
- "كنت" : نقيب في قلم المخابرات السرية.
- "هاليداي" : عالم بريطاني.
- "أوليفيه" : عالمة في الكيمياء من "فرنسا".
- "إينيز فيرونو" : سكرتيرة "أوليفيه".
- "باينتر" : رجل ثري مثقف.
- "كلود داريل" : ممثل في صالات الموسيقى والمسرح.

يجد كثير من الناس في عبور "المانش" لذة ولهوا، فيجلسون على ظهر السفينة وادعين حتى تلقي مراسيها، ثم يجمعون أمتعتهم ويهبطون منها في غير ما ضجة ولا جلبة. أما أنا فلا قبل لي بهذا ولا أكاد أعتلي سطح السفينة حتى أشعر بأن الوقت أقصر من أن يتسع للاستقرار على حال، ولا أنفك عن نقل حقائبي من مكان إلى آخر... وإذا نزلت إلى قاعة الطعام أخذت في التهام غدائي التهاما مخافة أن ترسو الباخرة قبل أن أصدق إلى ظهرها. ولعل هذا أثر من الآثار التي خلفها في نفسي قصر الإجازات إبان الحرب، فقد كان المرء يحرص على أن يكون في مقدمة النازلين ضناً بالدقائق الثمينة التي تضعيع سدى.

ولقد وقفت بجانب سور السفينة في صباح ذلك اليوم من أيام تموز (يوليو) أرمق قلاع "دوفر" البيضاء وهي تدنو منا شيئا فشيئا، وأنا أعجب في نفسي لأولئك المسافرين الذين يستطيعون أن يقرأوا في مقاعدهم ساكنين دون أن يهز مشاعرهم أول ما يطالعهم من معالم وطنهم.

لكن لعل شأنهم مختلف عن شأني، ولعل أكثرهم كانوا يقضون عطلة الأسبوع في "باريس" فلم تطل غيابتهم عن بلادهم... أما أنا فقد قضيت سنة ونصفا في مزرعة بـ"الأرجنتين"... ولكن كنت قد أصبت هناك الغنى والثناء، ونعمت مع زوجتي بحياة "أمريكا الجنوبية" الحرة الطليقة من القيود، فإني لم أملك نفسي من الإجهاش بالبكاء عندما وقع بصري على أرض الوطن، وكنت قد نزلت بـ"فرنسا" قبل ذلك بيومين حيث أنجزت بعض المهام، وهانذا في طريقي إلى "لندن"... وسوف أقضي بها بضعة أشهر أتمكن في خلالها من رؤية بعض قدماء الأصدقاء، ولا سيما صديق منهم قصير القامة أبيض الرأس أخضر العينين... هو "هركيول بورو"!

ولقد أردت أن أفاجئه بمقدمي فلم أشرف في آخر رسالة بعثت بها إليه من "الأرجنتين" إلى هذه الزيارة التي اضطرتني إليها بعض الشؤون العاجلة، ورحت أصور لنفسي دهشته وسروره عندما يراني. وكنت أستبعد أن يكون غائبا عن

مقره، فقد انقضى عهد تلك المهام التي كانت تحمله من أقصى "إنجلترا" إلى أقصاها، إذ بلغ من ذبوع الشهرة ونباهة الذكر ما كان يبغيه، ولم يعد يقبل أن تستغرق قضية من القضايا كل وقته... بل إنه ليعني الآن بأن يغدو بوليسا استشارياً على نحو كبار أطباء شارع "هارلي".

وعندما بلغت "لندن" أودعت أمتعتي بأحد الفنادق ثم قصدت من فوري إلى مسكن صديقي وقد ازدحمت في خاطري الذكريات التي تثير الشجون. ودخلت المسكن فرأيت أمامي "بوارو" وبين ذراعيه حقيبة صغيرة لم تلبث أن هوت إلى الأرض عندما رأيته وصاح:

- صديقي "هاستنجز" ! صديقي "هاستنجز" ! ثم اندفع نحوي كالسهم المارِق وطوقني بذراعيه معانقا، وقلت أخيرا عندما انجلت غمرة الابتهاج:

- أظن أن جناحي القديم به ساكن آخر. كم أود أن أعود إلى الإقامة معك. فتغير وجه "بوارو" فجأة وصاح قائلاً:

- يا إلهي ! يا لها من فرصة تضيع ! انظر حولك يا صديقي. ونظرت حولي لأول مرة فرأيت بجانب الجدار صندوقاً ضخماً من آثار ما قبل التاريخ، ومن كُتب منه عدة حقائق للثياب مصفوفة تبعا لأحجامها الأكبر فالأصغر... وما كانت دلالة هذا لتخفي عليّ فقلت:

- إنك تعترم السفر؟

- نعم.

- إلى أين؟

- "أمريكا الجنوبية".

- ماذا؟

- أجل. إن أمري وأمرك ليبعثان على الضحك حقاً. فقد أمسكت عن مكاشفتك بذلك في رسائلي، ورحت أمني نفسي بمشاهدة ما يعتريك من العجب والذهول عندما تفاجأ برؤيتي!

- طالما ظننت أنه لا يمكن أن يغريك شيء قط برحلة طويلة في البحر؟ وانتفض
"بوارو" قائلاً:

- لا نتحدث عنها بريك يا صديقي. لكن الطبيب أكد لي أن ركوب البحر لن
يميتني، ثم إن هذه الرحلة ستكون الأولى والأخيرة. ودفع بي إلى أحد المقاعد ثم
أردف قائلاً:

- سأخبرك كيف حدث ذلك. أتعرف من هو أغنى رجل في العالم؟ الرجل الذي
تفوق ثروته ثروة "روكفلر" نفسه؟ إنه "أيب رايلاند"...
- ملك الصابون الأمريكي؟

- أجل هو. لقد اتصل بي أحد سكرتيريه وفاوضني في السفر إلى "أمريكا
الجنوبية" لإجلاء أحداث غامضة مريبة تقع بمصنع في مدينة "ريو"، ورفضت
السفر في أول الأمر، ولكنني لم ألبث أن استجبت للمرة الأولى في حياتي لإغراء
المال، وقد كان المبلغ الذي عرضه عليّ ثروة طائلة، بيد أنه كان ثمة عامل ثان من
عوامل الإغراء... هو أنت يا صديقي... فلقد عانيت بعد رحيلك من مضاعفة
العزلة والوحدة ما زهدني في حل المضاعلات السخيفة، ورغبني في قبول ذلك المبلغ
والإقامة في "أمريكا الجنوبية" بالقرب منك. وهكذا قبلت المهمة، وسأرحل بعد
ساعة لاستقل القطار الذي يدرك السفينة. أليس هذا من مهازل الحياة؟ أخبرني...
ما المعنى الشائع لعبارة "الأربعة العظام"؟

- أعتقد أن هذه العبارة نشأت في أثناء مؤتمر "فرسايل"، كما أن هناك "الأربعة
العظام" البارزين في عالم السينما، ويطلق هذا اللقب الآن على هيئات كثيرة قليلة
الخطر.

- لقد عثرت على هذا اللقب في ظروف لا تلائم شيئاً من الإيضاحات التي
ذكرتها، ويلوح لي أنه يشير إلى عصابة من المجرمين الدوليين أو ما يشبه ذلك، غير
أنه... وسألته عندما رأيت تردده في إتمام كلامه:

- غير أنه ماذا؟

- غير أنه يبدو لي كذلك أن هذه العصابة تهدف إلى أغراض بعيدة المدى واسعة

النطاق . ولكنه مجرد ظن لا أكثر ولا أقل . والآن يجب أن أفرغ من حزم أمتعتني فإن الوقت يمضي سريعاً . فقلت ملحاً :

– لا تذهب ... ألغ تذكرتك وسافر معي بالسفينة التي سأرحل بها . فنصب "بوارو" قامته ورشقني بنظرة لوم وتأنيب وهو يقول :

– لقد وعدت ، وما كان "هركيول بوارو" ليخلف وعده إلا لأمر فيه موت أو حياة . وفتح الباب على مهل ، وبدا من خلفه رجل يعلوه التراب والأوحال من قمة الرأس حتى أخمصي القدمين ، وهو نحيف الوجه شاحبه ، وحقق إلينا لحظة ، ثم ترنح وهوى إلى الأرض فبادر إليه "بوارو" ، ثم نظر إليّ قائلاً :

– شرباً ... أسرع . فافرغت قليلاً من الشراب في قدح وجئت به ... وبعد أن سقاه "بوارو" قليلاً منه حملناه فيما بيننا إلى الأريكة ... ولم يلبث الرجل أن فتح عينيه وأخذ يجيل فيما حوله بصراً شارداً ... فسأله "بوارو" :

– ما الذي تريد يا صديقي ؟ وفتح الرجل شففيه وقال في صوت غريب :

– سيد "هركيول بوارو" بشارع "فاراواي" رقم 14 .

– أجل ... أجل ... أنا هو . وحاول "بوارو" أن يقف على حقيقة أمره بإلقاء طائفة من الأسئلة عليه ، فكان الرجل يصمت حيناً ، ويكرر عبارته تلك حيناً آخر ، فإشار إليّ "بوارو" باستدعاء الدكتور "ريدجواي" تليفونياً وكان الطبيب في بيته لحسن الحظ ، كما كان بيته قريباً جداً فأقبل بعد دقائق قلائل . وقال الطبيب أخيراً :

– إنها لحالة عجيبة . إن الرجل مصاب بصدمة ما . وكان مقبلاً إلى هنا تحت سلطان فكرة ملحة هي مقابلة السيد "هركيول بوارو" بشارع "فاراواي" رقم 14 فهو لا يفتأ يكرر هذه الكلمات آلياً دون أن يفقه معنى ما يقول . ثم وضع الطبيب بيد الرجل ورقة وقلما وهو يقول :

– فلننظر ما يفعل الآن . بيد أن الرجل لم يفعل شيئاً في أول الأمر ، ولكنه بدأ يكتب بعد قليل في مثل رعدة المحموم . ثم توقف عن الكتابة فجأة كما بدأ ، وهوى القلم والورقة إلى الأرض . فتناول الطبيب الورقة ونظر فيها ثم هز رأسه قائلاً :

– ليس فيها شيء ذو معنى لم يكتب سوى رقم 4 اثنى عشرة مرة ، وهو في كل

مرة أكبر من سابقه. وإنه ليريد أن يكتب رقم 14 بشارع "فاراواي". هذه حالة عجيبة... عجيبة جداً هل تستطيعان إبقاءه هنا إلى ما بعد الظهر؟ إنني ذاهب الآن إلى المستشفى، ولكنني سأعود بعد الظهر وأتدبر في أمره. إنها حالة عجيبة لا يمكن إهمالها. فافضيت إليه بان "بوارو" سيرحل الآن وأنني سأصاحبه إلى "سوئهامبتن" فقال:

- لا بأس. أتركاه هنا وليس في ذلك ضرر. إنه يعاني ضعفا في قواه، وسيستغرق على الأرجح في نوم عميق لثمانى ساعات كاملة. وسأطلب من مدبرة المنزل أن تلاحظه. وهروول الطبيب إلى الخارج بسرعه المعهودة. وأتم "بوارو" حزم أمتعته وبصره لا يتحول عن الساعة... ثم قال:

- إن الوقت يمضي بسرعة عجيبة... وليس بوسعك الآن يا "هاستنجز" أن تزعم أنني تركتك بلا عمل يشغلك ويدفع عنك السأم والملل، فهانتذا أمام لغز يثير العجب، الرجل الهابط من المجهول. من هو؟ وما غايته؟ إنني لآنزل عن سنتين من عمري لو كان بوسعي أن أؤخر قيام الباخرة إلى الغد. إن هنا لأمرا عجيبياً حرياً بالاهتمام، لكن علاجه يتطلب فسحة من الوقت. فقد يمضي اليوم بل الشهور قبل أن يتمكن هذا الرجل من الكلام والإفشاء إلينا بما جاء من أجله. وانتفضت عجباً إذ رأيت الرجل يثوب إلى رشده فجأة ويستوي في مقعده جالسا وهو يقول بنبرات واضحة جلية:

- "لي تشانج ين". وكان منظره كمنظر من يستيقظ فجأة من النوم، فأشار "بوارو" إلي بالصمت. ومضى الرجل في كلامه بصوت مسموع واضح النبرات، وإن كان في إلقائه ما يوحي إلى المرء بأنه مجرد ناقل عن تقرير أو خطبة مكتوبة:

- إن "لي تشانج ين" من "الأربعة العظام" بمثابة العقل المفكر والرأس المدبر، فهو القوة الموجهة الدافعة، ولذلك أطلقت عليه رقم 1... أما رقم 2 فيندر أن يذكر اسمه بل يرمز إليه بحرف "س" بالإنجليزية يقطعه خطان وذلك علامة الدولار، أو بخطين ونجمة. ويمكن أن يستنتج من ذلك أنه أمريكي الجنسية وأنه يمثل قوة المال. ولا يكاد يخالجنى أي شك في أن رقم 3 امرأة فرنسية، ولا يبعد أن تكون من

شهيرات غواني "باريس"، ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك بصفة قاطعة أما رقم 4... وهنا خفت صوت الرجل واضطرب ثم انقطع. وانحنى عليه "بوارو" وهو يستحثه على الكلام. وغمغم الرجل بجهد ومشقة:

– المدمر... ثم انتفض في عنف وغاب عن الصواب. وهمس "بوارو":

– احمله إلى سريري. ليس أمامي دقيقة واحدة أضيعها وإلا فاتني القطار. وما أعني أنني راغب في أن أدركه، فما أشد ما أتمنى أن يفوتني القطار دون أن يلحق بي لوم أو ذم! ولكنني وعدت فهي بنا يا "هاستنجز"!

وتركنا زائرنا العجيب في عهدة مدبرة المنزل السيدة "بيرسون" وأدركنا القطار في آخر لحظة. وكان "بوارو" يلوذ بالصمت العميق حيناً، ويسرف في الكلام حيناً آخر. فهو يجلس شاخصاً ببصره من نافذة القطار كالذاهل الحالم دون أن يسمع كلمة مما أقول، ثم ينشط للحديث فجأة ويمطرني بوابل من الوسايا والأوامر ويلح عليّ بموافاته بكل ما يجد بالتلغراف اللاسلكي.

وكنا في نوبة من نوبات الصمت عندما اجتزنا بلدة "وكنج" وعلى الرغم من أن القطار لم يكن ليقف قبل بلوغ "سوئهامبتن" فقد تلقى إشارة بالوقوف فجأة ريثما يُخلى له الخط. وعند ذلك صاح "بوارو" فجأة:

– آه! لقد كنت غيباً أحقق، وهأنذا أفطن إلى الحقيقة لا ريب في أن القطار وقف هنا بمعجزة. اقفز يا "هاستنجز"... اقفز. وبعد لحظة واحدة كان قد فتح باب المركبة ووثب إلى الأرض، وأمرني بأن أقذف بحقائبه ثم أئب إلى الأرض بعدها، ففعلت ذلك في آخر لحظة إذ تحرك القطار عندما وطئت قدماي الأرض وقلت بشيء من الضيق والتبرم:

– عسى أن تخبرني الآن يا "بوارو" بمعنى هذا كله. أجب:

– معناه أنني أبصرت النور. قلت:

– إن في هذا ما يظهر لي كل خفي!

– هذا ما يجب أن يكون، لكن شد ما أخشى ألا تفهم منه شيئاً، إذا استطعت

أن تحمل حقيبتين كان بوسعي حمل بقية الأمتعة.

كان القطار قد وقف لحسن الحظ قريبا من إحدى المحطات، فلم نسر غير قليل حتى بلغنا جراج السيارات، وبعد نصف ساعة كانت السيارة تطوي الأرض عائدة بنا إلى "لندن". وعند ذلك أخذ "بوارو" يشبع فضولي فقال:

— ألا تستطيع أن تتبين الحقيقة؟ لقد خفيت عليّ كما تخفى عليك، ولكنني أراها الآن واضحة. لقد كانوا يبعدونني عن الطريق. ولا ريب في أنهم كانوا يخشونني.

— من هم الذين كانوا يخشونك؟

— أولئك العباقرة الأربعة الذين تحالفوا للعبث بالقانون والخروج عليه. هم: صيني وأمريكي وفرنسية ورابع لا نعرفه... أسأل الله يا "هاستنجز" أن نبليغ "لندن" قبل فوات الأوان.

— أتظن أن هناك خطرا على ضيفنا؟

— أنا واثق بذلك. واستقبلتنا عند وصولنا السيدة "بيرسون" مبتهجة بعودة "بوارو"، ولكننا لم نمهلهما حتى تعرب عما يعتمل في نفسها، بل سالناها عما لديها من الأنباء، فكان ما أفضت به إلينا باعثا على الاطمئنان، إذ لم يسأل عنا أحد ولم يأت ضيفنا بحركة. فتنفسنا الصعداء وصعدنا إلى شقتنا... واجتاز "بوارو" الغرفة الخارجية إلى المخدم ثم ناداني وقال بصوت ينم عن الاضطراب:

— لقد مات يا "هاستنجز"... ولحقت به مسرعا فالفيت الرجل كما تركناه تماما ولكنه ميت لا حراك به! وركضت إلى الخارج في طلب طبيب، وكنت أعلم أن الدكتور "ريدجواي" لا يمكن أن يكون قد عاد إلى بيته. وسرعان ما عدت بأحد الأطباء وقال الطبيب بعد أن فحصه:

— إن المسكين ميت. أهو متشرد كنتما تعطفان عليه؟ فأجاب "بوارو":

— شيء من هذا القبيل. لكن ما سبب الموت يا دكتور؟

— من العسير أن أقطع في ذلك برأي. فقد تكون نوبة من التوبات... وهناك

أعراض اختناق. هل هنا أنابيب للغاز؟

- كلا... ليس هنا سوى الكهرياء.

- ثم إن النافذتين مفتوحتان وإني لأرى أنه مات منذ ساعتين تقريبا. لا ريب في أنك ستخطر الجهات المختصة؟ واستاذن في الانصراف. وراح "بوارو" يقوم بالاتصالات التليفونية اللازمة ومن العجيب أنه اتصل في النهاية بصديقنا القديم المفتش "جاب" وسأله المجيء إلينا. وما كاد صاحبي يفرغ من ذلك حتى أقبلت إلينا السيدة "بيرسون" وفي عينيها سمات العجب والدهشة وقالت:

- هنا رجل من مستشفى المجانين في "هانويل". هل أحضره إلى هنا؟ وسرعان ما جاءتنا برجل ضخيم الجسم مفتول الساعدين يرتدي ثيابا رسمية... قال بلهجة مرحة:

- طاب نهاركما أيها السيدان. إن لديّ ما يحملني على الاعتقاد أن عندكما هنا طائرا من طيورتي لقد هرب في الليلة الماضية. فأجابه "بوارو" بهدوء:

- لقد كان هنا. وسأل الحارس بشيء من الاهتمام:

- هل هرب ثانية؟

- بل قضى نحبه. فبدت على الرجل علامات الارتياح وقال:

- لعل هذا خير له ولغيره.

- أكان جنونه خطرا؟

- أتعني هل كان جنونا دمويا؟ كلا... لقد كان هادئا لا يؤذي. وإنما كانت تلح عليه الخيالات والأوهام، ولا يفتأ يهذي بجمعيات سرية سجنته في "الصين"، وما إلى ذلك من التخريف والتهريف. فسأله "بوارو":

- وكم انقضى عليه في المستشفى؟

- إن له الآن نحو سنتين. لم يزد "بوارو" على ذلك شيئا ودخل بالرجل لكي يرى الجثة فعرفها في الحال. وقال الحارس دون أن يبدي شيئا من التأثر:

- هذا هو دون ريب. ومن الخير أن أنصرف الآن لاتخاذ الترتيبات التي تقتضيها هذه الظروف. ولن نزعجكم بهذه الجثة طويلا، وستدعيان بطبيعة الحال لحضور أي تحقيق قد يجرى في هذا الشأن... طاب صباحك يا سيدي. وخرج الحارس متثاقلا

بعد أن انحنى أمام صاحبي . وبعد دقائق أقبل "جواب" المفتش بإدارة "سكوتلانديارد" مرحا نشيطا كعادته وقال :

- هاأنذا يا سيد "بوارو" ... أية خدمة أستطيع أداءها؟ لقد ظننتك راحلا اليوم إلى مضايق المرجان أو غيرها من الأنحاء القاصية .

- أريد أن أعرف يا عزيزي "جواب" ، هل رأيت هذا الرجل من قبل؟ وأخذ "جواب" إلى المخدع ، فراح المفتش يحدق إلى الجثة المسجاة على السرير في حيرة وارتابك ثم قال :

- بخيل إليّ أنني أعرفه ، وإن ذاكرتي لقوية ... يا لله إنه "مايرلنج" ؟

- ومن هو "مايرلنج" ؟

- إنه من رجال قلم المخابرات ، وقد ذهب إلى "روسيا" منذ خمس سنوات ، ثم لم نسمع عنه بعد ذلك خيراً ... وكنت أظن أن البلاشفة قضوا عليه . وبعد انصراف "جواب" قال "بوارو" :

- إن كل ما وقفنا عليه الآن يلائم بعضه بعضا ... ولا يشذ عن ذلك سوى أن يكون موت هذا المنكود طبيعياً . ووقف ينظر إلى الجثة المسجاة نظرات الشك والارتباب ... وحركت هبة من الريح ستائر النوافذ فالتفت إليّ وقال :

- أظنك فتحت النوافذ عندما وضعت على السرير يا "هاستنجز" ؟ أجبت :

- كلا ... بل أذكر أنها كانت مغلقة . فرفع "بوارو" رأسه فجأة وهو يقول :

- كانت مغلقة وهي الآن مفتوحة ... فعلام يدل ذلك؟ قلت :

- لا شك في أن شخصا ما قد دخل إلى الغرفة عن طريقها . فأسرع إلى الغرفة الخارجية ثم عاد قائلاً :

- إن نافذة غرفة الجلوس مفتوحة أيضا مع أننا تركناها مغلقة . وانحنى على الميت يفحص جانبي فمه فحفا دقيقا ثم انتصب فجأة وقال :

- لقد كان الرجل مكما يا "هاستنجز" ... كمم ثم قتل بالسم !! فهتفت مرتاعا :

- يا لله أظن أننا سنعرف تفاصيل ذلك من التشريح .

– لن نعرف شيئاً فقد قتل بتنشيقه حامض البروسيك القوي، وذلك بوضعه تحت أنفه... ثم انصرف القاتل بعد أن فتح جميع النوافذ... وهذا الحامض سريع الطيران، لكن له رائحة قوية كرائحة اللوز المر... فإذا لم يجد الأطباء أثراً للرائحة يهددهم إلى الحقيقة عزوا الموت إلى سبب من الأسباب الطبيعية... وقد علمنا أن هذا الرجل كان بقلم المخابرات، وأنه ذهب إلى "روسيا" منذ خمس سنوات.

– لقد لبث السنتين الأخيرتين في مستشفى المجانين، فماذا حدث في السنوات الثلاث السابقة لهما؟ فهز "بوارو" رأسه ثم قبض على ذراعي قائلاً:
– الساعة. انظر إلى الساعة. وتتبع بصره إلى الساعة الموضوع على الموقد فأيتها واقفة على الرابعة. وقال "بوارو":

– لقد عبث شخص ما بالساعة يا صديقي، فقد كان يجب أن تدور ثلاثة أيام أخرى إذ إنها لا تملأ إلا كل ثمانية أيام فماذا تفهم من ذلك؟
– لكن لماذا يعبثون بها؟ أريدون تضليلنا وإيهامنا بأن الجريمة وقعت في الساعة الرابعة؟

– كلا. كلا أعد تنسيق أفكارك يا صديقي واستعمل خلايا مخك... هب أنك في مكان "مايرلنج". لعلك تسمع حركة أو صوتاً... وإنك لتعلم حق العلم أن موتك أمر محقق، وليس أمامك من الوقت إلا ما يسمح لك بأن تترك إشارة أو رمزاً... الساعة الرابعة يا "هاستنجز" رقم 4 المدمر يا لها من فكرة! وهرع إلى الغرفة الأخرى راكضاً حيث رفع سماعة التليفون وطلب مستشفى المجانين في "هانويل".

– مستشفى المجانين؟ لقد فهمت أن أحد المرضى هرب اليوم! ماذا تقول؟
– لحظة واحدة من فضلك. هل تسمح بإعادة هذا؟ آه. شكراً. ووضع السماعة مكانها وعاد إليّ قائلاً:

– هل سمعت يا "هاستنجز"؟ لم يهرب أحد. قلت:

– لكن الرجل الذي جاء هنا... الحارس؟

– إني لفني شك.

- أتعني...؟

- رقم 4 المدمر. فوقفت لحظة مشدوها معقود اللسان ثم قلت عندما أسعفني النطق:

- سوف نعرفه على كل حال إذا رأيناه ثانية، وهذه نقطة في صالحنا، فإنه ذو شخصية واضحة.

- أهو كذلك يا صديقي؟ لا أظن. لقد كان مفتول الساعدين ممتلئ الجسم محمر الوجه له شارب كثيف وصوت خشن أجش. ولن نرى فيه شيئا من هذه الصفات فيما بعد... أما فيما عدا ذلك، فعيناه وأذناه ليس بها ما يميزها عن غيرها وأسنانه باكملها صناعية. إن التعرف إلى شخصيته ليس بالأمر اليسير كما تظن وفي المرة التالية... فقاطعتة قائلا:

- أتظن أنه سيكون هناك مرة ثانية؟ وبدت على محيا "بوارو" سمات الجذ والاهتمام وقال:

- إنه صراع حتى الموت يا صديقي. أنا وأنت في جانب و"الأربعة العظام" في الجانب الآخر. ولقد ربحوا اللعبة الأولى، ولكنهم أخفقوا في إبعادي عن طريقهم، وسيكون عليهم في المستقبل أن يحسبوا حساب "هركيول بوارو".

- 3 -

ظللت يوما أو يومين أطمع في عودة حارس مستشفى المجانين الزائف وأبيت أن أفارق المسكن لحظة واحدة... فقد كنت أرى أنه ليس ثمة ما يحمله على الظن بأننا كشفنا تنكره، وأنه قد يعود لنقل الجثة. لكن "بوارو" سخف من فكرتي قائلا:

- لك يا صديقي أن تتربص ما شئت في طلب المحال، أما أنا فلن أضيع وقتي فيما لا يجدي.

- لماذا جازف إذن بالهجيء إلى هنا يا "بوارو"؟ لو كان يعتزم العودة لأخذ الجثة لرأيت في زيارته سببا معقولا إذ يزيل بذلك الدليل على جريمته. أما الاكتفاء

بزيارته الاولى فليس له أي معنى؛ إذ إنه لم يفد منها شيئا...

– إنك لا تنظر إلى الأشياء بعين رقم 4 يا "هاستنجز"... أنت تتحدث عن الدليل لكن أي دليل نملك ضده؟ نعم إن بين أيدينا جثة، لكن ليس ثمة أقل دليل على أن الرجل مات مقتولا؛ فإن حامض البروسيك إذا استنشق لا يترك أثرا. وفوق ذلك فإننا لا نستطيع أن نجد من رأى أحداً من الناس يدخل شقتنا إبان غيابنا، كما أننا لم نجد شيئا عن حركات صديقنا المرحوم "مايرلنج"...

كلا يا "هاستنجز". إن رقم 4 لم يخلف وراءه أثرا وهو عليم بذلك. وما أراد بزيارته لنا غير التعرف والاستطلاع. كان يريد أن يرى "بوارو" ويحادثه وهو الخصم الوحيد الذي يجب أن يرهبه ويخشاه... وبدأ لي تعليق صديقي مشوبا بما عرف عنه من حب المباهاة والافتخار، ولكنني أمسكت عن مناقشته وقلت:

– وما رأيك في تحقيق أسباب الوفاة؟ لا ريب في أنك ستوضح الأمر لهيئة التحقيق إيضاحاً تاماً وتدلي إلى رجال البوليس بأوصاف رقم 4.

– وما الفائدة من ذلك؟ هل بوسعنا أن نقدم ما يقنع المحلفين وهم من مواطنيك الإنجليز ذوي العقول الجامدة؟ هل ينطوي وصفنا لرقم 4 على أية قيمة؟ كلا... سنتركهم يقررون أنه "موت عارض" ولعل القاتل البارع – وإن كان ألمي في ذلك ضعيفا – يهنئ نفسه بأنه استطاع أن يخدع "هركيول بوارو" في الجولة الأولى. وكان "بوارو" صادق النظر كعادته، فإن الحارس الزائف لم يظهر قط، وانقضى التحقيق في موت الرجل دون أن يحدث شيئا من الاهتمام.

سألني في صباح أحد الأيام بعد أسبوع من حادث القتل هل أحب أن أرافقه في زيارة يريد القيام بها. وسررت بذلك أشد السرور إذ كنت أرى أنه يخطئ بمحاولة الاستئثار بمعالجة هذه المشكلة وحل طلاسمها، لكنني ألفتته راغبا عن التحدث فيها، حتى أنه لم يشأ أن يصارحني بالمكان الذي سذهب إليه.

و"بوارو" مولع بأن يحيط نفسه بجو من الغموض والخفاء ولا يبوح قط بخبر من الأخبار إلا في آخر لحظة ممكنة. وقد ركبنا حافلتين وقطارين على التوالي وهو صامت لا ينطق، فلما بلغنا ضاحية من ضواحي "لندن" الجنوبية الموحشة القابضة

للنفس ارتضى أن يشرح لي أخيراً الباعث على هذه الزيارة فقال :

- إننا ذاهبان يا "هاستنجز" لمقابلة الرجل الوحيد في "إنجلترا" الذي يعرف معظم العصابات في "الصين" ... رجل لم تسمع به قط ... رجل يدعى السيد "جون أنجلز" وهو موظف مدني متقاعد متوسط الذكاء يملأ بيته بالتحف الصينية . لكن الخبيرين قد أكدوا لي مع ذلك أن "جون أنجلز" هذا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يمدني بما أريد من المعلومات .

وبعد بضع دقائق كنا نطرق باب السيد "جون أنجلز" ففتح لنا خادم صيني جامد الاسارير وقادنا إلى حضرة سيده . وكان "أنجلز" ربع القامة مصفر البشرة ، ذا عيني عميقتين . ونهض لتحيتنا وهو يضع جانبا رسالة كانت في يده . وقد أشار إلى هذه الرسالة بعد أن فرغ من التحية فقال :

- تفضلا بالجلوس . إن "هالسي" أخبرني بأنك تحتاج إلى بعض المعلومات وأنني قد أكون ذا فائدة لك في هذا الصدد .

- أجل يا سيدي . إنني أريد أن أسألك هل تعرف شيئا عن رجل يسمى "لي تشانج ين" ؟

- هذا عجيب . وكيف سمعت بهذا الرجل ؟

- إنك تعرفه إذن ؟

- لقد لقيته مرة ، وأعرف عنه بعض الأمور وإن كانت أقل مما كنت أود معرفته ، لكن يدهشني حقاً أن يكون في "إنجلترا" من سمع باسمه سواي . وهو رجل عظيم في محيطه من الموظفين الصينيين ومن إليهم ، لكن ليس هو جوهر الموضوع ، فإن هناك من الأسباب ما يبرر الاعتقاد أنه الرجل الخفي الكامن وراء هذا كله .

- وراء ماذا ؟

- وراء كل شيء : هذا الاضطراب العالمي الشامل ، وقلاقل العمال التي تقض مضاجع كل شعب ، والثورات التي تنشب في كثير من الأقطار . وهناك قوم ليسوا من دعاة الخوف والقلق ، وهم يقولون إن ثمة قوة محركة من وراء هذه المناظر التي ترمي إلى القضاء على المدنية ، ففي "روسيا" كما تعلم كان يوجد كثير من القرائن

التي تدل على أن "لينين" و"تروتسكي" لم يكونا سوى ديميتين تتحركان طوعا لعقل رجل آخر. وليس لديّ من البراهين ما يكفي لإقناعك، ولكنني أعتقد أن ذلك العقل المفكر هو "لي تشانج ين". قلت معترضا:

- ألا ترى في هذا إسرافا وشططا؟ كيف يمكن أن يؤثر رجل صيني في "روسيا"؟ فقال "بوارو" عابسا متبرما:

- إنك يا "هاستنجز" لترى في كل ما لا يصدر عن خيالك إسرافا وشططا، ولكنني أتفق مع هذا السيد في رأيه. امض في حديثك يا سيدي. واستطرد السيد "أنجلز" يقول:

- وليس بوسعي أن أتبين الهدف الذي يرمي إليه من كل هذا، ولكنني أظنه مصابا بنفس الداء الذي ما فتئت العقول الكبيرة تدهى به منذ عهد "أكبر" و"الإسكندر" حتى "نابليون"... ألا وهو شهوة السلطان والعظمة الشخصية! وقد كانت الجيوش المسلحة حتى العصور الحديثة عدة الغزو والفتح، لكن رجلا مثل "لي تشانج ين" يستطيع أن يبلغ غرضه بوسائل أخرى في هذا القرن المتسمم بالفتن والثورات... وعندي من الأدلة ما يؤيد أن تحت تصرفه موارد لا تنضب من المال للرشوة والدعاية، وثمة دلائل تنم عن أنه يسيطر على قوة علمية أعظم خطرا مما خطر ببال إنسان. وكان "بوارو" يتتبع كلمات "أنجلز" بمزيد من العناية والاهتمام. وسأله:

- و"الصين" هل يعمل هناك أيضا؟ فأوما "أنجلز" بالإيجاب وقال:

- لا أستطيع هنا إبراز دليل يأخذ به القضاء، ولكنني أستمد حديثي من معلوماتي الشخصية. إنني لأعرف كل رجل له قيمة اليوم في "الصين". وبوسعي أن أقول إن الرجال البارزين أمام الرأي العام هم أضعف الناس شخصية، أو لا شخصية لهم إطلاقا... إنهم مجرد عرائس ترقص بأسلاك تجذبها يد أخرى، هي يد "لي تشانج ين" وهو العقل الذي يسيطر على الشرق في الوقت الحاضر... إننا لا نفهم الشرق ولن يتھيا لنا فهمه، لكن "لي تشانج ين" هو الروح الذي يحركه ولا أعني بذلك أنه يبرز إلى المسرح ويخطر تحت أضوائه. كلا... إنه لا يبرح قط قصره في

"بكين"، ولكنه يجذب الخيوط فتقع الأحداث في أقصى الانحاء. فسأله "بوارو":
- أليس ثمة من يعارضه ويقاومه؟ ومال السيد "أنجلز" في مقعده قائلاً في تمهل:

- لقد حاول ذلك أربعة رجال في خلال الأعوام الأربعة الأخيرة... رجال من ذوي الخلق القويم والنزاهة والشرف والذكاء.
- حسناً؟

- حسناً... إنهم ماتوا جميعاً... فقد كتب أحدهم مقالا قرن فيه اسم "لي تشانج ين" بالاضطرابات التي وقعت في "بكين" فأصيب بعد يومين بطعنة نجلاء قضت عليه وهو يسير في الطريق ولم يقبض على قاتله قط! وكانت جريمة الرجلين التاليين له مشابهة لجريمته، إذ قرنا في مقال أو حديث اسم "لي تشانج ين" بالقتل والفتن، فلم ينقض أسبوع على زلة كل منهما حتى كانا في الهالكين. وقد مات أحدهما بالسم، والآخر بالكوليرا دون أن يكون ثمة هذا الوباء! أما الرابع فقد وجد ميتا في فراشه ولم يمكن تعليل سبب موته. وقد أخبرني طبيب شاهد الجثة بأنها كانت محترقة ضامرة أشد الضمور كأنما سلط عليها تيار كهربائي تفوق قوته كل ما يصل إليه الخيال! قال "بوارو":

- و"لي تشانج ين"؟ لا ريب في أنه لا يمكن العثور على أية صلة بينه وبين هذه الحوادث لكن ثمة قرائن وعلامات؟

- أجل... مجرد علامات... ولقد عثرت ذات يوم على شخص يرغب في الكلام وهو كيماوي صيني شاب عظيم الذكاء ممن يشملهم "لي تشانج ين" برعايته، جاءني هذا الكيماوي الشاب ذات يوم وهو في أشد حالات الاضطراب، ولح إلى تجارب كان يقوم بها في قصر "لي تشانج ين" وتحت إشرافه وتوجيهه... تجارب كانت تُجرى على الأجراء الصينيين التعمساء ولا يقام فيها أي وزن للحياة الإنسانية أو لما يعانيه أولئك المنكدودون من الألم المروع، وكان الشاب محطم الأعصاب فحملته على النوم بالغرفة العليا من البيت الذي كنت أقيم به، معتزماً أن أسأله في اليوم التالي عما يروعه، ولكنني ارتكبت بذلك أكبر عمل من أعمال

الغفلة والغباء . وسأله "بوارو" :

– وكيف استطاعوا الوصول إليه؟

– هذا هو الأمر الذي لن أعرفه أبداً . فقد استيقظت في تلك الليلة وقد اشتعلت النيران في بيتي ، وأسعدني الحظ بالنجاة بجلدي . ودل البحث على أن حريقاً هائلاً شب في الطابق الأعلى من البيت ، ووجدت رفات صديقي الصيني وقد أحالها الحريق تراباً ! وهنا فطن محدثنا إلى أن ذكر "الصين" قد استثار حماسه واستدرجه إلى الإسهاب الذي طالما شكاه جلساؤه فاستدرك ضاحكاً :

– ولكنني لا أملك بالتأكيد دليلاً على ما أقول ، وستقولان كغيركما إن بي لوثة أو خبالاً . فاجاب "بوارو" بهدوء :

– بل إن لدينا كل ما يحملنا على الاعتقاد بصدق قصتك ، ونحن مهتمان اهتماماً ليس بالقليل بأمر "لي تشانج ين" .

– إنني لأحب أن أعرف كيف سمعتما به ... إذا لم يكن ثمة مانع من ذلك .

– لقد لاذ بمسكني رجل كان يعاني آثار صدمة عنيفة مروعة ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يفضي إلينا بما أثار اهتمامنا بأمر "لي تشانج ين" ... وصف الرجل أربعة أشخاص ... "الأربعة العظام" ... وهم هيئة لم يكن ليحلم بوجودها أحد ... فرقم 1 هو "لي تشانج ين" ، ورقم 2 أمريكي مجهول ، ورقم 3 امرأة فرنسية مجهولة كذلك ، ورقم 4 يمكن أن يسمى منفذ العصابة ... أو المدمر ، وقد مات هذا الرجل الذي أفضى إليّ بهذه المعلومات ، فهل تعرف شيئاً يا سيدي عن "الأربعة العظام" ؟

– لا أعرف صلة بين هذه الهيئة وبين "لي تشانج ين" ، ولكنني سمعت بها أو قرأت عنها في العهد الأخير ... وفي مناسبة غريبة ، آه ... لقد تذكرت . وقام إلى دولا ب صغير الحجم بديع الصنع وعاد برسالة في يده وهو يقول :

– هذه رسالة من بحار قديم لقيته مصادفة في "شنغهاي" ، وقد حسبت ما جاء بها من هذر السكاري . وراح يتلوها بصوت مرتفع :

« سيدي العزيز ... قد لا تذكرني ، ولكنك أسديت إليّ يداً في "شنغهاي" ، وأرجو أن تسدي إليّ الآن يداً أخرى ... إنني أحتاج بشدة إلى النقود كي أغادر

هذه البلاد، ومع أنني أرجو أن أكون هنا في مخبئ أمين، فإنهم قد يظفرون بي في أي يوم... وأعني بهم "الأربعة العظام" ! إنها الحياة أو الموت، وعندي وفر من المال، ولكنني لا أجرؤ على الدنو من مكانه لئلا ينتبهوا إليّ... أرسل إليّ مائتي جنيه من أوراق النقد، وأقسم أن أردّها كاملة».

"يوناثان هوالي"

وأردف "أنجلز" يقول:

- والرسالة محررة بشاليه "الجرانيت" في "هوباتون" بـ "دارتمور" وكنت أظنها حيلة لسلب مائتي جنيه أنا في أشد الحاجة إليهما فإذا كنت تجد فيها فائدة... ومد الرسالة إلى "بوارو" فقال صاحبي:

- أشكرك، وسأقوم إلى "هوباتون" في الحال.

- إنها مسألة تثير الاهتمام فهل لديك مانع من مجيئي معكما؟

- يسرني أن تكون معنا، لكن يجب أن أذهب في الحال حتى نبلغ "دارتمور" قبيل الليل.

لم يستغرق استعداد "أنجلز" للخروج أكثر من دقيقتين. وبلغنا قرية "هوباتون" حوالي الساعة الثامنة، ولما كنا إذ ذاك في شهر تموز (يوليو) فإن ضوء النهار كان لا يزال منتشرًا، وأخذنا نقطع شوارع القرية الضيقة حتى لقينا قروياً ساذجا سألناه عن شاليه "الجرانيت" فأشار إلى كوخ صغير قائم في نهاية الشارع وهو يقول:

- هذا هو الشاليه، أتريدون مقابلة المفتش؟ فسأله "بوارو" منفعلًا:

- أي مفتش؟ ماذا تعني؟

- ألم يبلغك حادث القتل إذن؟ لقد كان حادثًا مروعا، ويقال إن هناك بركة من الدماء. فغمغم "بوارو":

- يا لله! يجب أن أرى مفتشك هذا في الحال.

وبعد خمس دقائق كنا في خلوة مع المفتش "ميدوز"، وقد أبدى الرجل شيئا من الخشونة والغلظة، لكن "بوارو" لم يكذب يذكر اسم "جواب" المفتش بإدارة "سكوتلانديارد" حتى لانت عريكته واستحالت غلظته رقة ولينا. وقال يصف الحادث:

— أجل يا سيدي... قتل هذا الصباح، وكان مقتله فظيعا بشعا... وقد أخطروا نقطة بوليس "مورتون" تليفونيا فجئت في الحال... وبدأ لي الحادث يلفه الغموض والخفاء، فإن القتل — وهو كما تعلم يناهز الستين وكان مولعا بالشراب كما قيل لي — كان مستلقيا على أرض غرفة الجلوس وفي رأسه خدش، وقد حز عنقه حتى كاد الرأس ينفصل عن الجسد... وكانت الدماء متناثرة في الغرفة كلها، وقد أخبرتنا المرأة التي تطهوه له طعامه وتدعى "بتسي أندروز" بأنه كان لدى سيدها عدة تماثيل صينية صغيرة قال لها إنها ثمينة جداً، لكن هذه التماثيل اختفت! والحادث يبدو على هذا الوجه جريمة اعتداء وسرقة، لكن هناك كثيرا من العقبات التي تقوم في وجه هذا التعليل فقد كان يقيم مع القتل في البيت شخصان، "بتسي أندروز" وهي من أهل قرية "هوباتون"، وخادم خشن الهيئة يدعى "روبرت جران" وكان "جران" قد ذهب إلى المزرعة لإحضار الحليب (اللبن) كمعاداته كل يوم، وخرجت "بتسي" لتتلهى بالحديث قليلا مع إحدى الجارات... ولم تمكث بعيدا عن البيت أكثر من عشرين دقيقة فيما بين العاشرة والعاشرة والنصف، ولأشك في أن الجريمة قد ارتكبت في تلك الفترة. وكان "جران" أول من عاد إلى البيت ودخل من الباب الخلفي الذي كان مفتوحا؛ إذ إنه ليس من عادة أهل هذه القرية إغلاق أبوابهم ولا سيما في رابعة النهار، وبعد أن وضع الحليب في المطبخ، ذهب إلى غرفته ليقراً صحيفته ويدخن قليلا... ثم أقبلت "بتسي" وذهبت إلى غرفة الجلوس فطالعتها ذلك المنظر الهائل، وأرسلت المرأة صيحة مدوية تكفي لإيقاظ أهل القبور، وكل هذا واضح لا غموض فيه ولا التواء، ولكنني رأيت أن القاتل جريء مستهتر، إذ لم يكن أمامه مندوحة عن سلوك الشارع الرئيسي بالقرية، أو التسلل من الفناء الخلفي لأحد الجيران... وشاليه "الجرانيت" تكتنفه البيوت من كل جانب كما ترى، فكيف اتفق أن لم ير القاتل أحدا؟ بعث هذا الخاطر في نفسي الشك والارتباب، فأخذت أتلقت حولي باحثا متقصيا، ورأيت اختفاء تلك التماثيل الصينية الصغيرة مسألة حرية بالتروي والتفكير، فهل كان من الممكن أن يخطر ببال أي لص عادي أن هذه التماثيل

ثمينة عظيمة القيمة؟ ثم إنه كان من الجنون محاولة ارتكاب هذه الجريمة في وضح النهار؛ إذ كان ممكناً أن يصيح القاتل مستغيثاً. فقال السيد "أنجلز":

— أظن يا سيدي المفتش أن الحداث الذي بالرأس حدث قبل الموت.

— أصبت يا سيدي. لقد ضربه القاتل ضربة أفقدته الوعي ثم حز عنقه، هذا واضح أتم الوضوح، لكن بحق شياطين الجحيم كيف جاء القاتل وكيف انصرف؟ إن أهل القرى الصغيرة يلاحظون فوراً كل من يقدم عليهم من الغرباء، ولا ريب في أنه لم يحضر إلى البيت رجل غريب، وعدت إلى البحث والاستقصاء، وقد أمطرت السماء في الليلة الماضية فرأيت آثار أقدام واضحة داخلية إلى المطبخ وخارجة منه، أما في غرفة الجلوس فكانت مجموعتان من آثار الأقدام فقط؛ إذ إن الطباخة "بتمسي" وقفت ببابها ولم تدخلها، وهذه آثار قدمي السيد "هوالي" الذي كان يلبس خفّاً من القماش وآثار أقدام شخص آخر، وكان الرجل الآخر قد وطئ الدماء السائلة على الأرض، فتتبعت آثار قدميه الدموية إلى المطبخ، وعند ذلك انقطعت الآثار، وهذه هي النقطة الأولى، وكانت بأعلى إطار باب غرفة "روبرت" الخادم بقعة خفيفة من الدم، وهذه هي النقطة الثانية، أما النقطة الثالثة فهي عندما أخذت حذاء "جرانت" وكان قد خلعه وقارنته بآثار قدمي الرجل الثاني فانطبق عليه تمام الانطباق، وكان في هذه القرائن كلها الدليل القاطع على أن المجرم من أهل البيت، فالقيت القبض على "روبرت جرانت"، فما الذي تظنون أنني وجدته في حقيبته؟ التماثيل الصينية الصغيرة وتذكرة سفرا وقد ظهر أيضاً أن "روبرت جرانت" هو "إبراهيم بيجز" الذي سجن منذ خمس سنين في جناية خيانة وسطو، فما رأيكم في هذا أيها السادة؟ فأجاب "بوارو":

— أظن المسألة واضحة جداً... بل هي واضحة وضوحاً يستثير الدهشة والعجب،

إن هذا الرجل "بيجز" أو "جرانت" هو بغير شك مغفل أحقق غير متعلم؟

— إنه كذلك... رجل عادي جاهل لا يفقه ما قد يعنيه أثر قدم.

— لا ريب في أنه لا يقرأ القصص البوليسية! حسناً... إنني أهنئك أيها المفتش... هل تسمح لنا بمعاينة مكان الجريمة؟

— سأخذكم إلى هناك بنفسي في الحال، فإني أحب أن تتروا آثار الأقدام... وسرنا إلى هناك من فورنا وقد تقدمنا مفتش البوليس والسيد "أجلز" فتأخرت مع "بوارو" قليلا حتى لا يسمع المفتش حديثنا وقلت:

— ما رأيك في هذه المسألة يا "بوارو"؟ هل فيها أكثر مما تدل عليه الظواهر؟
— هذا هو السؤال حقاً يا صديقي، لقد أوضح "هوالي" في رسالته وضوحاً تاماً أن "الأربعة العظام" في أثره، ونحن —أنا وأنت— نعلم أن "الأربعة العظام" ليسوا أشباحاً من أشباح الخيال التي يخوف بها الأطفال، لكن الدلائل كلها تشير إلى أن هذا الرجل "جرائت" هو مرتكب الجريمة، فلماذا فعل ذلك؟ أمن أجل هذه التماثيل الصينية الصغيرة؟ أم هو من صنع "الأربعة العظام"؟ إني أعترف بأن الفرض الأخير أدنى إلى العقل والمنطق، فمهما تكن قيمة هذه التماثيل فإن رجلاً من طبقته لا يمكن أن يدرك حقيقتها إلى درجة اقتراف جريمة قتل من أجلها على الأقل، فقد كان بوسعه أن يسرق هذه التماثيل ويهرب بها بدلاً من ارتكاب مثل هذه الجريمة الوحشية التي لا فائدة منها. أجل، إني أخشى أن يكون صديقنا مفتش البوليس قد أغفل استخدام خلايا مخه الرمادية الصغيرة، لقد عُني بقياس آثار الأقدام، ولكنه لم يعن بالتأمل وتنسيق أفكاره.

- 4 -

أخرج المفتش من جيبه مفتاحاً فتح به باب شاليه "المجرانيت"، وكان النهار صحواً لا مطر فيه فلم يكن من المنتظر أن تترك أقدامنا أي أثر، ولكننا مع ذلك مسحناها جيداً بالحصيرة الموضوعة عند الباب، وبرزت امرأة وتحدثت إلى المفتش، فانتحى ناحية ثم تكلم من فوق كتفه قائلاً:

— انظر ما شئت في المكان وشاهد كل ما تتمكن مشاهدته يا سيد "بوارو"، وسأعود بعد بضع دقائق، وبهذه المناسبة ها هو حذاء "جرائت"، فقد جئت به معي لكي تقارن بين الآثار.

ودهبنا إلى غرفة الجلوس ووقع قدمي المفتش يتلاشى وهو يغادر البيت، وانصرف

السيد "أنجلز" إلى مشاهدة بعض التحف الصينية الموضوعة على منضدة في ركن الغرفة، أما أنا فأخذت لاحظ حركات صديقي بمزيد من العناية والاهتمام، وكانت الأرض مفروشة باللينوليوم الذي تظهر عليه الآثار واضحة جلية، كما كان في نهاية الغرفة باب يؤدي إلى المطبخ، وفي المطبخ باب يفتح على المغسل الذي فيه الباب الخلفي للبيت، وباب آخر يفتح على مخدع النوم الذي كان يشغله "روبرت جرانث"، وبعد أن فرغ "يوارو" من فحص هذه المواقع جميعاً راح يعقب على ذلك بصوت خافت:

- هنا كانت الجثة، فإن هذه البقعة الكبيرة الداكنة وما حولها من رذاذ يدل على ذلك... وهناك آثار خف من القماش وحذاء رقم 9 ولكنها مضطربة مختلطة، وهنا خطان من آثار الأقدام يتجه أحدهما إلى المطبخ ويخرج الآخر منه، وقد جاء القاتل من هذه الناحية كائناً من كان، هل الحذاء معك يا "هاستنجز"؟ أعطني إياه. وراح يقارنه مدققاً في الآثار ثم قال:

- أجل... إن الخطين كليهما لرجل واحد... "روبرت جرانث" لقد جاء من هذا الطريق، وبعد أن قتل الرجل عاد إلى المطبخ ولقد وطئ الدم الجاري على الأرض... أترى هذه اللطخ التي تركها في خروجه؟ ولا يمكن أن تتبين في المطبخ إذ اجتمع به أهل القرية جميعاً، وقد ذهب إلى مخدعه الخاص... كلا، بل عاد قبل ذلك إلى موقع الجريمة... فهل كان لأخذ التماثيل الصغيرة؟ أم تراه نسي شيئاً يدل عليه ويثبت إجرامه؟ قلت:

- لعله قتل الرجل عند دخوله الغرفة للمرة الثانية.
- كلا... إنك غير دقيق الملاحظة فإن أثراً من الآثار الخارجة من الغرفة والملوثة بالدم يعلوه أثر آخر متجه إليها، إنني لأعجب لماذا عاد إلى الغرفة؟ أيمن أن تكون سرقة التماثيل لم تخطر له إلا بعد ارتكابه جريمة القتل؟ إن هذا فرض سخيف ينبو عنه العقل.

- لقد ترك من الأدلة ما لا يترك له أملاً في الإفلات من عواقب جرمه.
- أجل يا "هاستنجز"، وهذا ينافي العقل والمنطق، فلندخل غرفة نومه، ها هي

بقعة الدم بأعلى إطار الباب، وهذه آثار أقدام خفيفة يشوبها الدم، إنها آثار قدمي "روبرت جرانث" وهي الآثار الوحيدة التي نجدها بجانب الجثة، فـ"روبرت جرانث" إذن هو الوحيد الذي اقترب من البيت. قلت:

- وما رأيك في المرأة العجوز؟ لقد كانت في البيت وحدها عندما ذهب "جرانث" لإحضار الحليب (اللبن)، فمن الممكن أن تكون قتلتها ثم خرجت، وما كانت قدماها لتترك أثرا؛ إذ لم تكن قد خرجت من البيت وتلوثت قدمها بالاحوال.

- حسن جداً يا "هاستنجز"، لقد فكرت في هذا الفرض ونبذته، إن "بتسي أندروز" من هذه القرية، وجميع أحوالها معروفة، فلا يمكن أن تكون لها صلة بـ"الأربعة العظام". وفوق ذلك فقد كان "هوالي" على كبر سنه عظيم القوة، كلا... إن هذه الجريمة من عمل رجل لا امرأة.

- لا أخال "الأربعة العظام" تمكنوا من أن يضعوا بالسقف جهازاً شيطانياً يهبط من تلقاء نفسه على عنق "هوالي" فيحزه ثم يرتفع ثانية؟!

- لا أجهل يا "هاستنجز" أن لك خيالا خصيباً جداً ولكني أرجو أن تحد من جماحه قليلاً!

فأمسكت عن الكلام، ومضى "بوارو" يطوف بأرجاء البيت باحثاً منقّباً في الغرف والدواليب وعلى وجهه علامات الحيرة والشك، ثم صاح على حين فجأة صيحة ذكرتني بنباح كلاب "بوميرانيا"، فبادرت إليه فوجدته واقفاً في مخزن المؤونة وهو يلوح منفعلًا بفخذ خروف في يده! وهتفت مرتاعاً:

- ماذا دهاك يا عزيزي "بوارو"؟ هل أصابك مس من الجنون؟

- انظر إلى هذه الفخذ بربك! تأملها جيداً! وتأملتها بكل ما استطعت من الدقة والإمعان. نظرت فلم أر بها شيئاً غير عادي، وقلت له ذلك فقال:

- ألا ترى هذه... وهذه... وهذه؟ وكان يوضح كل "هذه" بوخزة عنيفة بأصبعه في الفخذ البريئة المسكينة فتطير عند كل وخزة كرة صغيرة من الثلج، ولقد اتهمني "بوارو" منذ لحظة بالشطط والإسراف في الخيال، ولكنني أراه الآن

يتجاوز كل حد في الشطط والإسراف، فهل يظن حقاً أن هذه الكريات الثلجية الصغيرة سم زعاف؟ إن هذا هو الحمل الوحيد الذي استطعت أن أحمل عليه حماسته وانفعاله . وقلت :

- هذه فخذ مثلجة مستوردة من "نيوزيلندا" كما تعلم . فشخص إليّ ببصره لحظة ثم انفجر ضاحكا ضحكة عجيبة وهو يقول :

- ما أعجب صديقي "هاستنجز"، إنه ليعرف كل شيء . وألقى بالفخذ في الصحيفة، ثم غادر مخزن المؤونة ونظر من النافذة ثم قال :

- ها هو صديقنا المفتش قادم، لقد رأيت كل ما أريد رؤيته هنا . وراح ينقر بأصابعه على المائدة ساهما مفكرا ثم سألني فجأة :

- في أي يوم نحن يا صديقي؟ أجبته في شيء من العجب :
- يوم الاثنين . ماذا ...؟

- آه ! يوم الاثنين؟ إنه من أيام النحس . ومن الخطأ أن يرتكب المرء جريمة يوم الاثنين . وعدنا إلى غرفة الجلوس فأخرج ترمومترا الصقه بالجدار ثم قال :

- 21 درجة مئوية... إنه يوم مثالي من أيام الصيف في "إنجلترا" . وكان "أنجلز" لا يزال عاكفا على فحص التحف الصينية، فسأله "بوارو" :

- ألا يلذ لك هذا البحث يا صديقي؟ فابتسم "أنجلز" قائلاً :

- هذا ليس من عملي كما ترى، إنني خبير ببعض الأشياء، لكن هذا البحث ليس من بينها، وهكذا أقف في المؤخرة متنحيا عن الطريق، فقد تعلمت الصبر والأناة في الشرق .

وأقبل المفتش وراح يعتذر عن غيابه، وأصر على أن يطوف بنا في أرجاء البيت من جديد، ولكننا غادرناه أخيراً... وقال "بوارو" ونحن نسير في الشارع :

- إنني أقدر أدبك الجم، لكن هناك رجاء آخر أقدم به إليك .
- لعلك تريد أن ترى الجثة يا سيدي...

- كلا يا صديقي ! إن الجثة لا تعنيني إطلاقاً، إنما أريد رؤية "روبرت جرائت"...

- إذن فلا بد من أن تعود معي إلى "مورتون" يا سيدي.
- حسنا... سأذهب معك... لكن يجب أن أراه وأحادثه على انفراد. فقال المفتش مترددا:
- لا أظن أنني أستطيع ذلك يا سيدي.
- إني واثق بأنك إذا استأذنت في ذلك "سكوتلانديارد" فسيفوضون إليك الأمر تفويضا مطلقا.
- لقد سمعت عنك كثيرا يا سيدي وأعلم أنك كثيرا ما أسديت إلينا معونات لا تنكر، لكن ما تطلبه مناف للأوامر. فقال "بوارو" بهدوء:
- ولكنه على الرغم من ذلك فإن الأمر ضروري جداً... إنه ضروري لهذا السبب... وهو أن "جرانت" ليس القاتل.
- ماذا؟ ومن يكون القاتل إذن؟
- إن القاتل في نظري أقرب إلى الشباب، وقد جاء إلى البيت في عربة تركها في الخارج، ثم دخل المنزل، وارتكب جريمة القتل، ثم غادره واستقل عربته ثانية، وكان عاري الرأس وثيابه ملوثة بالدماء قليلا.
- لكن... لكن كان يجب أن يراه أهل القرية جميعا!
- إلا في ظروف معينة.
- إلا إذا كانت الجريمة وقعت إبان الظلام، ولكنها حدثت في وضح النهار! فلم يزد "بوارو" على الابتسام... واستطرد المفتش قائلا:
- والعربة والجنود يا سيدي؟ لقد مر بالبيت عدد كبير من العربات ولا يمكن تمييز آثار عربة معينة من بين آثارها جميعا.
- لا يمكن تمييزها بالبصر، لكن هذا ممكن بعين العقل. فمس المفتش جبينه وهو يتسمم لي ابتسامة ذات معنى، ولكنني كنت واثقا بحصافة "بوارو" أشد الثقة على الرغم من حيرتي وعجبي.
- وانتهت هذه المناقشة بذهابنا جميعا مع المفتش إلى "مورتون"... وأخذنا أنا و"بوارو" إلى "جرانت"، لكن كان يجب أن يحضر أحد المعاونين اجتماعنا به.

وتكلم "بوارو" في الموضوع مباشرة دون أي تمهيد فقال :

- إني أعلم يا "جرائت" أنك بريء من هذه الجريمة، فقص عليّ كل ما حدث .
وكان السجين متوسط القامة، على شيء من الدمامة، تبدو عليه سمات أهل
الشر ومعتادي السجون . وهتف شاكيا :

- أقسم أنني لم أرتكب هذه الجريمة، وأن شخصا آخر دس تلك الدمى الصغيرة
في امتعتي . إنها تهمة أحكم تليفقها ضدي لقد ذهبت عند عودتي إلى غرفتي
رأسا كما قلت، ولم أشعر بشيء قط حتى سمعت صياح "بتسي"، فאלلهم
عونك... إنك لتعلم أنني بريء! فوقف "بوارو" وهو يقول :

- إذا لم يكن بوسعك الإفضاء إليّ بالحقيقة، فلا شأن لي بك .
- لكن... .

- إنك لم تذهب إلى غرفتك... وكنت تعلم أن سيدك ميت كما كنت تتأهب
للفرار عندما اكتشفت الجريمة الرهيبة. فنظر الرجل إلى "بوارو" مشدوها ذاهلا .
وقال "بوارو" :

- أليست هذه هي الحقيقة؟ إني أؤكد لك بشرفي أن الصراحة هي سبيلك
الوحيد الآن إلى النجاة . فاندفع الرجل يقول :

- سأجازف بذلك . إن الأمر كما تقول، فقد دخلت البيت وقصدت رأسا إلى
سيدي حيث ألفيته مضرجا بدمائه، وعند ذلك تجلّى الموقف رهيبا هائلا،
فسيبحثون في ماضي وسيحكمون باني مرتكب تلك الجريمة الشنعاء، ولم أر أمامي
سبيلا للنجاة سوى المبادرة إلى الفرار قبل اكتشاف الجريمة .

- والتماثيل الصغيرة؟ لعلك أخذتها بدافع من غريزتك . إنك سمعت سيدك
بالتأكيد يقول إنها عظمة القيمة، ولم ترفي سرقتهما ما يزيد موقفك سوءاً، والآن
أجب عن هذا السؤال . هل أخذت التماثيل عند ذهابك إلى الغرفة أول مرة أم ثاني
مرة؟

- إني لم أذهب إلى الغرفة مرة ثانية، فقد كان حسبي مرة واحدة .

- أوأنت أنت بذلك؟

- تمام الثقة .

- حسناً، والآن، متى خرجت من السجن؟

- منذ شهرين .

- وكيف التحقت بهذا العمل؟

- بواسطة إحدى جمعيات مساعدة المساجين إذ قابلني عند خروجي رجل من رجالها .

- وماذا كانت هيئته؟

- لم يكن قسيساً حقاً، ولكنه كان أشبه برجال الدين، قبعة رخوة سوداء، وتردد في إلقاء الكلمات، وكانت له سن مكسورة، وعلى عينيه نظارة، ويسمى "سوندرز"، وقال لي إنه يرجو أن أكون نادماً راغباً في التوبة، وأرسلني إلى "هوالي" بتوصية منه. فنهض "بوارو" وقال:

- أشكرك، إنني أعرف الآن كل شيء، فاصبر قليلاً. ثم وقف عند الباب قائلاً:

- ألم يعطك "سوندرز" حذاء؟ فهتف "جرانت" مشدوها:

- أجل.. لكن كيف عرفت ذلك؟ أجاب "بوارو":

- إن مهمتي هي معرفة الأشياء. وبعد أن تحدث قليلاً مع مفتش البوليس ذهبنا نحن الثلاثة إلى مطعم "الأرنب الأبيض" لتناول الطعام، وسأل "أنجلز" مبتسماً:

- هل وفقت إلى استجلاء الحقيقة؟

- أجل... إن الحادث الآن واضح أشد الوضوح، ولكنني سأجد كثيراً من الصعوبة في إثبات ذلك، لقد قتل "هوالي" بأمر "الأربعة العظام"... لكن "جرانت" ليس القاتل، لقد ألحق "جرانت" بهذا العمل رجل شديد الدهاء رسم خطة محكمة لكي يجعله كبش الفداء، وهي غاية سهلة بالنظر إلى ماضي "جرانت" الملوث. وأعطاه حذاء، بينما احتفظ هو بحذاء آخر مطابق له أتم المطابقة وكانت المهمة بعد ذلك سهلة ميسورة فها هو "جرانت" يغادر البيت، و"بتسي" مشغولة بالهذر مع جارتها (ولعلها كانت تفعل ذلك كل يوم) فليس على صاحبنا إلا أن يذهب إلى البيت في عربة وهو لابس ذلك الحذاء ثم يدخل المطبخ، وينفذ

منه إلى غرفة الجلوس حيث يصصر القتييل بضربة ثم يحز عنقه، وبعد ذلك يعود إلى المطبخ ويخلع حذاءه ويلبس حذاء آخر ويخرج حاملا الحذاء الأول حيث يستقل عربته وينصرف. فحدج "أنجلز" "بوارو" ببصره وقال:

— لكن لا تزال هناك ثغرة لماذا لم يبصره أحد؟

— آه! هنا تتجلى براعة رقم 4، لقد رآه الناس جميعا... ومع ذلك لم يره منهم أحد. إنه جاء في عربة جزارة! فهتفت عجبا:

— فخذ الخروف؟

— تماما يا "هاستنجز"... فخذ الخروف، لقد أكد الناس جميعا أنه لم يحضر أحد إلى البيت هذا الصباح، ولكني مع ذلك وجدت بمخزن المؤونة فخذ خروف لا يزال فتات الثلج عالقا بها، واليوم هو يوم الاثنين ولا شك في أن الفخذ أحضرت هذا الصباح إذ لو كانت قد أحضرت يوم السبت في هذا الجو الحار لما ظل الثلج بها طيلة يوم الأحد، فلا ريب في أن رجلا قد جاء إلى البيت، ولا شك في أنه كان رجلا لا تستلفت ملبسه الأنظار إذا تناثرت عليها بقع من الدم. فهتف "أنجلز" بإعجاب:

— يا لها من حيلة بارعة؟

— أجل... إن رقم 4 بارع الحيلة شديد الدهاء. فغمغمت قائلا:

— أهو في براعة "هركيول بوارو"؟ ورشقي صديقي بنظرة لوم وتأنيب ثم قال:

— إن من المزاح ما لا ينبغي لك يا "هاستنجز"، ألم أنقذ رجلا بريئا من حبل الجلاد؟ حسبي هذا عملا في يومي.

- 5 -

لا يكاد يخالجنني أي شك في أن المفتش "ميدوز" لم يقتنع ببراءة "روبرت جرانث" حتى بعد أن قرر مجلس التحقيق إطلاق سراحه؛ إذ كانت الأدلة القائمة ضده قوية ثابتة، فهناك سوابق الرجل ووجود التماثيل الصينية في حقيبته، وانطباق حذائه على الآثار الموجودة ببيت "يوناثان هوالي" القتييل تمام الانطباق بيد أن

"بوارو" استطاع أن يقنع المجلس ببراءة الرجل، كما تقدم شاهدان وأقرأ بأنهما أبصرا عربة جزارة تحضر إلى البيت في صباح ذلك اليوم، وشهد الجزار المحلي بأن عربته لا تذهب إلى هناك إلا في يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، بل لقد أمكن العثور على امرأة تذكرت أنها أبصرت عامل جزار يغادر البيت، ولكننا لم نقف منها على وصف مفيد له، فهي لا تذكر إلا أنه كان حليق الوجه، متوسط القامة، ليس في منظره إلا ما يدل على أنه من عمال الجزارين حقاً. وقال لي "بوارو" بعد انتهاء التحقيق:

— إن هذا الرجل فنان يا "هاستنجز"، فهو لا يتنكر بلحية مستعارة ونظارة زرقاء، أجل إنه يغير هيئته، لكن هذا أقل الأشياء خطراً في أمره، إذ إنه يتفانى تماماً في الشخصية التي ينتحلها حتى يقوم بها طبيعياً لا تمثيلاً.

ولم أجد بداً من الاعتراف بأن الرجل الذي زارنا زاعماً أنه من مستشفى "هانويل" كان حارساً حقيقياً من حراس مستشفيات المجانين لا سبيل إلى الشك في أنه كذلك حقيقة، وداخلني الشعور بالخيبة والفشل وبدا لي أننا لم نقد شيئاً من حادث "دارقمور"، لكن "بوارو" خالفني في ذلك قائلاً:

— إننا لتتقدم، ففي كل مرة نعرف قليلاً عن تفكير هذا الرجل وأساليبه، دون أن يعرف هو شيئاً عن تفكيرنا وأساليبنا. فقلت معترضاً:

— أما من هذه الناحية فأني وإياه سواء في هذا الشأن إنه ليلوح لي أنه ليست لديك أية خطة وأنك تجلس مترقباً أن يقوم هو بعمل ما. وضحك "بوارو" قائلاً:

— إنك لا تتغير يا صديقي أبداً، ولا تفتأ تريد الوثوب على خصمك وإنشاب مخالفك في عنقه! وطُرق الباب إذ ذاك فاردف قائلاً:

— ربما تكون الفرصة التي تتشوق إليها قد وافت فيكون الطارق صديقنا. وضحك من اكتئابي عندما رأيت أن الطارق هو المفتش "جواب" ورجل آخر معه. وقال المفتش:

— مساء الخير يا سيدي، اسمح لي بأن أقدم إليك النقيب "كنت" من قلم المخابرات السرية بـ"الولايات المتحدة".

وكان النقيب "كنت" أمريكياً مديد القامة، نحيف البنية، له وجه لا تنم أساريره عن شيء كأنه وجه تمثال من الحجر. وقال المفتش "جواب" عندما استقر بنا المقام:

- فلنتحدث الآن في العمل. لقد أزعجني إلي السيد "بوارو" رجاء، فهو مهمته بامر هيئة تطلق على نفسها اسم "الأربعة العظام" وقد سألني أن أخطره في الحال إذا عثرت بذكر لها في أثناء قيامي بأعمالي الرسمية ولم أهتم بالأمر كثيراً، ولكنني تذكرت طلبه عندما جاءني النقيب بقصة على جانب غير قليل من الغرابة، ورأيت أن أنور السيد "بوارو". ونظر "بوارو" إلى النقيب "كنت" فقال هذا:

- لعلك تذكر يا سيد "بوارو" أنك قرأت عن زوارق طوربيد ونسافات غرقت لاصطدامها بالصخور على الشاطئ الأمريكي وكان ذلك عقب الزلزال الياباني، وعلل الحادث بأنه نتيجة للتيارات العنيفة الناجمة عن الزلزال، ولكنه حدث منذ زمن غير بعيد أن اعتقلت جماعة من اللصوص ورجال العصابات وضبطت معهم أوراقاً تضيفي على الحادث لونا جديداً، فقد أشارت إلى هيئة تسمى "الأربعة العظام" وأوردت وصفاً غير كامل لتركيبات لاسلكية قوية تنبعث عنها قوة لا يعرف لها مثيل، ويمكن تركيز شعاعها الهائل في أية نقطة، ومع أن القوى المزعومة لهذا الاختراع تبدو لي خيالية تنبؤ عن العقل، فقد بعثت بالأوراق إلى الرئاسة، فعكف على فحصها رجل من أعظم رجال العلم عندنا، على أن أحد رجال العلم البريطانيين قد ألقى أخيراً محاضرة عن هذا الموضوع أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني، وعلى الرغم من أن زملاءه لم يهتموا بما قال كثيراً وظنوه مبالغاً في الخيال فقد أصر هذا العالم على آرائه وأعلن أنه هو شخصياً على وشك النجاح في اختباره. فقال "بوارو" باهتمام:

- حسناً؟

- وقد رئي أن أحضر إلى "إنجلترا" وأجتمع بهذا العالم، وهو شاب في مقتبل العمر يسمى "هاليداي"، كما أنه على رأس الثقات في هذا الموضوع، وكان عليّ أن أسأله هل هذا الاختراع المزعوم في حيز الممكنات حقاً. فسألته بشوق:

- وهل كان كذلك؟
- هذا هو ما أجهله، فإني لم ألق السيد "هاليداي"، ولا أتوقع لقاءه مطلقا.
- وقال المفتش "جواب" موجزا:
- إن حقيقة الأمر هي أن "هاليداي" قد اختفى.
- متى؟
- منذ شهرين.
- وهل أبلغ اختفاؤه إلى البوليس؟
- لقد أبلغ إلينا بالتاكيد. إن زوجته والهة ملتاعة ففعلنا كل ما في وسعنا، وأنا أعلم أن جهودنا ذاهبة أدراج الرياح. إن الرجل الذي يختفي في هذا الطريق لا فائدة في البحث عنه.
- في أي طريق؟
- في "باريس".
- أجل، ذهب إليها في مهمة علمية كما زعم، فقد كان من الضروري أن ينتحل لسفره سببا من الأسباب، ولكنك تعرف ما يعنيه اختفاء أحد من الناس في "باريس"، فإما أن يكون أشرارها قد فتكوا به، وإما أن يكون اختفى بمحض اختياره... والوجه الثاني هو الغالب في حوادث الاختفاء. وإنك لتعرف "باريس" ومجالي اللهو والعبث فيها، وكان ثمة خلاف بين "هاليداي" وزوجته قبيل سفره، وهكذا ترى أن الحادث واضح. فقال "بوارو" مفكرا:
- إني لأعجب لذلك. وكان الأمريكي يلاحظه بفضول فقال:
- هل لك أن تخبرني يا سيدي بمعنى "الأربعة العظام"؟ أجاب "بوارو":
- إن "الأربعة العظام" عصابة دولية يتزعمها صيني يعرف برقم 1، ورقم 2 أمريكي، ورقم 3 امرأة فرنسية، ورقم 4 أو "المدمر" إنجليزي. فهتف الأمريكي:
- امرأة فرنسية؟ وقد اختفى "هاليداي" في "فرنسا"، لعل لهذا الأمر دلالة... ما اسمها؟
- لا أدري ولا أعرف عنها شيئا.

- وماذا كانت غاية "الأربعة العظام" من إغراق تلك السفن؟ أهم من صناع "المانيا"؟

- إن "الأربعة العظام" لا يعملون إلا لحساب أنفسهم يا سيدي النقيب، وهم يرمون إلى السيطرة على العالم. فانفجر الأمريكي ضاحكا، ولكنه كف عن الضحك عندما رأى على وجه "بوارو" سمات الجد. وقال "بوارو" وهو يشير بإصبعه:

- أنت تضحك يا سيدي... إنك لا تتمعن ولا تستعمل خلايا مخك الرمادية الصغيرة... من هم هؤلاء الرجال الذين يدمرون جزءا من بحريتك كمتجربة بسيطة لقوتهم؟ إن هذا هو سر الحادث يا سيدي... كان امتحانا لقوة الجذب المغناطيسي التي يملكونها. فقال المفتش "جاب" ضاحكا:

- لقد قرأت كثيرا عن أفاذا المجرمين ولكني لم ألق أحدا منهم قط... وعلى كل حال فقد سمعت قصة النقيب "كنت"، فهل من شيء آخر أستطيع عمله؟
- أجل يا صديقي... يمكنك أن تعطيني عنوان "هاليداي"، وتكتب كلمات قلائل تقدمني بها إلى زوجته. وهكذا كنا في اليوم التالي في طريقنا إلى بيت "تشيتوند" بالقرب من قرية "تشوبهام" بمقاطعة "سري"... واستقبلتنا فوراً السيدة "هاليداي"، وهي امرأة طويلة حسناء عصبية سريعة الحركة، وشرح لها "بوارو" سبب زيارتنا فقالت:

- إنني لشاكرة لك هذا الاهتمام يا سيد "بوارو"، ولقد سمعت عنك! واعتقادي أنك لن تكون كرجال "سكوتلانديارد" أو البوليس الفرنسي الذين يعتقدون أن زوجي قد رحل مع امرأة أخرى، إنه لم يكن من هذا الطراز، ولم يكن يشغله في العالم بأسره سوى عمله، وهذا هو السبب في معظم ما كان بيننا من الخلاف... لقد كان عمله يشغله عني. فقال "بوارو" موسيا:

- إن هذه طبيعة رجال الإنجليز... فإذا لم يشغلهم العمل شغلهم الرياضة والألعاب! إنهم ليحملون هذه الأمور على محمل الجد والاهتمام... والآآن أرجو أن تقصي عليّ يا سيدتي ظروف اختفاء زوجك بكل ما تستطيعين من الدقة

والتفصيل.

- إن زوجي سافر إلى "باريس" يوم الخميس 20 تموز (يوليو) لمقابلة أشخاص عديدين يتصلون بعمله، ومن بينهم السيدة "أوليفيه". فأوماً "بوارو" برأسه عند ذكر اسم هذه الكيماوية التي طغى اسمها على اسم السيدة "كوري" نفسها، وأنعمت عليها الحكومة الفرنسية بأرفع الأوسمة وغدت من أبرز شخصيات الوقت الحاضر. واستطردت السيدة "هاليداي" تقول:

- وقد بلغ "باريس" في المساء ونزل بفندق "كاستليون" في شارع "كاستليون"... وكان على موعد مع الأستاذ "بورجونو" في صباح اليوم التالي فذهب إليه، واتفق الرجلان على أن يشهد زوجي بعض التجارب بمعمل الأستاذ في اليوم التالي، وتناول الغداء وحده في "كافيه رويال" وتنزه قليلاً في غابات "بولونيا" ثم زار السيدة "أوليفيه" ببيتها في "باسي"... وكانت أحواله كلها طبيعية ليس فيها ما يسترعي النظر... وغادر بيت هذه السيدة في الساعة السادسة... ولا يعرف أحد أين تناول عشاءه، ثم عاد إلى الفندق حوالي الساعة الحادية عشرة وقصد إلى غرفته رأساً بعد أن سأل هل وصلت رسائل باسمه، وفي الصباح غادر الفندق ولم يره أحد بعد ذلك.

- في أية ساعة غادر الفندق؟ هل خرج في الوقت المناسب للذهاب إلى مواعده في معمل الأستاذ "بورجونو"؟

- لا ندرى، فلم يره أحد وهو يغادر الفندق، لكن طعام الإفطار لم يقدم إليه، وهذا دليل على أنه خرج مبكراً.

- وقد يكون خرج بعد عودته في الليلة السابقة.

- لا أظن ذلك فقد كانت حالة الفراش تدل على أنه نام به، وما كان الحارس الليلي لينسى أي شخص يغادر الفندق في تلك الساعة المتأخرة.

- هذه ملاحظة صحيحة حقاً يا سيدتي... ولنا أن نستنتج منها أنه غادر الفندق في بكرة الصباح التالي، وهو أمر يبعث على شيء من الطمأنينة؛ إذ لا يمكن أن يكون قد وقع بين أيدي أوباش "باريس" وأشقائها في مثل ذلك الوقت

من النهار... والآن هل خلف بالفندق جميع أمتعته؟ وبدأ على السيدة "هاليداي" التردد في الجواب ثم قالت:

— كلا. لا شك في أنه أخذ معه حقيبة صغيرة. فقال "بوارو" وهو مستغرق في التفكير:

— إنني لأعجب أين أمضي ذلك المساء... ولو عرفنا ذلك لعرفنا كثيراً من الأشياء... فمن الذي التقى به؟... إن هذا السر بأكمله، إنني -يا سيدتي- لا أوافق على نظرية رجال البوليس؛ إذ إنهم دائماً يتبعون المثل المشهور "فتش عن المرأة"... ولكن من الواضح أنه وقع في تلك الليلة ما حمل زوجك على تغيير خططه... ولقد قلت إنه سأل عن رسائل باسمه عندما عاد إلى الفندق، فهل كان ثمة شيء من ذلك؟

— رسالة واحدة لاشك في أنها الرسالة التي كتبتها إليه في يوم سفره من "إنجلترا". فاستغرق "بوارو" في تفكير عميق نحو دقيقة ثم قال:

— إن حل هذا اللغز الغامض في "باريس" يا سيدتي، ولابد من سفري إليها في الحال.

— ولكن قد مضى على الحادث زمن طويل يا سيدي.

— أجل، لكن يجب أن نطلب الحل هناك. وسار يريد الانصراف، ولكنه وقف عند الباب قائلاً:

— أخبريني يا سيدتي... ألم يذكر زوجك أملك قط عبارة "الأربعة العظام"؟

فقالت السيدة مفكرة:

— "الأربعة العظام"، كلا، لا أذكر شيئاً كهذا.

- 6 -

ما وافى اليوم التالي حتى كنت وصديقي "بوارو" في طريقنا إلى "باريس"، وقال "بوارو" وهو يبتسم:

— إن هؤلاء "الأربعة العظام" يكلفونني كثيراً من الخفة والنشاط فهأنذا أثب هنا

وهناك كصديقنا "الكلب الآدمي". وكنت أعلم أنه يشير بذلك إلى شرطي يدعى "جيرو" من أقدر رجال إدارة الأمن في "باريس" فقلت:

– لعلك تلقاه في "باريس". أجباب وهو يقطب جبينه:

– أتمنى ألا يحدث هذا فإنه لا يحبني. قلت:

– ألا ترى أن من العسير أن نقف على ما فعله إنجليزي مجهول ذات ليلة منذ شهرين؟

– عسير جداً يا صديقي، لكن "هركيول بوارو" يتتهج دائما بكل مشكل عسير كما تعلم.

– أظن أن "الأربعة العظام" خطفوه؟ فأوماً "بوارو" بالإيجاب.

على أن البحث لم يضيف كثيرا إلى ما وقفنا عليه من السيدة "هاليداي"، فقد اجتمع "بوارو" بالاستاذ "بورجونو" اجتماعا طويلا حاول خلاله أن يعرف هل تحدث "هاليداي" وكيف كان ينوي قضاء تلك الليلة، ولكننا لم نفر بطائل.

وكان المصدر الثاني لما نطلبه من المعلومات هو السيدة "أوليفيه" الشهيرة، وقصدنا إلى بيتها في "باسي" ففتح لنا خادم في السابعة عشرة أو نحوها، وكان "بوارو" قد حصل على موعد مقدما؛ إذ كان معروفا أن السيدة "أوليفيه" لا تستقبل أحداً بتاتا دون اتفاق سابق لانهماكها في أبحاثها العلمية. وأدخلنا إلى صالون صغير سرعان ما وافتنا فيه ربة البيت، وكانت السيدة "أوليفيه" فارعة الطول، تلبس معطفا مسترسلاً، وعلى رأسها خمار كخمار الراهبات، وكان لها وجه مستطيل مصفر، وعينان سوداوان عجيبتان ينبعث منهما بريق يجعلهما أشبه بعيون المتعصبين من ذوي الهوس الديني... واستقبلتنا بأدب فاتر جاف قائلة:

– لقد قابلني رجال البوليس مرارا، واعتقادي أنني لن أستطيع مساعدتكم إذ عجزت عن مساعدتهم. فقال "بوارو":

– من الممكن يا سيدتي أن تكون أسئلتني غير أسئلتهم ولنبدأ بأولها... فيم دار الحديث بينك وبين السيد "هاليداي"؟ وبدت عليها علامات الدهشة وقالت:

– بالتأكيد في عملنا وعمله!

– هل ذكر لك النظريات التي أوردتها في محاضراته أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني أخيراً؟

– بلا ريب، وكانت هذه أهم ما تناوله الحديث. فقال "بوارو" دون اكتراث:

– وكانت نظرياته خيالية... أليس كذلك؟

– هكذا يعتقد بعض الناس، ولكنني لا أتفق معهم.

– أترين أنها عملية؟

– عملية تماماً. وقد كانت أبحاثي مشابهة لأبحاثه، كما أنها تهدف إلى الغاية نفسها، إن تجارب السيد "هاليداي" تحوز مزيد اهتمامي. فأوما "بوارو" برأسه ثملقى عليها سؤالاً دهشت له أشد الدهشة:

– أين كنتما تتحدثان في هذه المواضيع يا سيدتي؟ أبهذه القاعة؟

– كلا يا سيدي. في المعمل.

– هل أستطيع مشاهدته؟

– بلا ريب. وتقدمتنا إلى الباب الذي دخلت منه فأفضى بنا إلى ممشى صغير وبعد أن اجتزنا بابين ألفينا أنفسنا في المعمل بأدواته وأجهزته الكثيرة المتنوعة التي لم أفهم منها شيئاً، وكان هناك شخصان عاكفان على بعض الأعمال، وقدمتهما إلينا السيدة "أوليفيه" قائلة:

– الآنسة "كلود" إحدى مساعدي. فانحنت لنا فتاة طويلة القامة بادية الجد، وقالت السيدة "أوليفيه":

– السيد "هنري"... صديق قديم أمين. وانحنى لنا شاب قصير القامة أسمر البشرة.

وراح "بوارو" يقلب بصره فيما حوله، وكان هناك بابان آخران غير الباب الذي دخلنا منه، وأخبرتنا السيدة بأن أحدهما يفضي إلى الحديقة، والآخر إلى قاعة أصغر من هذه القاعة مخصصة أيضاً للبحث والاختبار، وعند ذلك أعلن "بوارو" استعداداه للعودة إلى قاعة الاستقبال. وسألها:

- هل كنت وحدك يا سيدتي في أثناء اجتماعك بالسيد "هاليداي"؟
- أجل يا سيدي، فقد كان مساعداي في القاعة الصغرى المجاورة للمعمل.
- وهل كان في الإمكان أن يصل حديثكما إليهما... أو إلى غيرهما؟ ففكرت السيدة قليلا ثم هزت رأسها قائلة:
- لا أظن، بل أكاد أكون واثقة بعدم إمكانه إذ كانت الأبواب كلها مغلقة.
- ألا يمكن أن يكون أحد قد اختبأ بالقاعة؟
- إن بالركن دولابا كبيرا... لكن الفكرة غير معقولة.
- مسألة أخرى يا سيدتي... هل ذكر السيد "هاليداي" شيئا عما ينتوي عمله في ذلك المساء؟
- لم يقل عن ذلك شيئا يا سيدي.
- أشكرك يا سيدتي وأعتذر عن إزعاجك، أرجو ألا تكلفني نفسك مشقة توديعنا إلى الباب فإننا نعرف طريقنا.
- وبلغنا الردهة، وكانت إحدى السيدات تدخل من الباب الخارجي وراحت ترتقي السلم مسرعة، وقد تركت في نفسي مثل الأثر الذي تحدثه أرملة في ثياب الحداد.
- وقال "بوارو" ونحن نبتعد عن البيت:
- إنها لامرأة غير عادية.
- السيدة "أوليفيه"؟ أجل إنها...
- كلا... لا أعني السيدة "أوليفيه"، إن هذا غني عن البيان! ليس في العالم كثير من العبقريات التي من طرازها، إنما أعني السيدة الأخرى... التي ارتقت السلم. قلت في استغراب:
- إنني لم أر وجهها ولا أدري كيف استطعت أنت ذلك مع أنها لم تنظر نحونا.
- فأجاب "بوارو" بهدوء:
- ولهذا قلت إنها امرأة غير عادية، فإن المرأة التي تدخل بيتها (ولاريب في أنها مقيمة بالبيت ما دامت تدخل بمفتاح خاص معها) وترتقي السلم بسرعة دون أن

تلقي نظرة واحدة على زائرين غريبين في الردهة كي تعرف من هما، لهي امرأة من طراز غير عادي... بل غير طبيعي. يا لله! ما هذا؟ وجذبنني إلى الورا في آخر لحظة إذ لم يكذب فعل ذلك حتى هوت إحدى أشجار الممشى وكانت كفيلة بالقضاء علينا لو ظللنا في طريقنا، وراح "بوارو" يحدق إليها وهو ممتقع الوجه نائر الأعصاب... ثم قال:

- لقد نجونا من خطر داهم لم يجلب بفكري قط، ولولا عيناى اللتان في مثل حدة عيني القط لكان "هركيول بوارو" الآن في غير هذا العالم، وهي كارثة مروعة على العالم، ولهلكت أنت أيضاً يا صديقي... وإن كان هذا لا يعد رزاً قومياً. فقلت بامتعاض:

- أشكرك، والآن ما عسى أن نفعل؟ فهتف "بوارو":

- نفعل؟ نفكر، سنستعمل هنا وفي الحال خلايانا الرمادية الصغيرة... والآن... هل كان السيد "هاليداي" في "باريس" حقاً؟ أجل، فإن الأستاذ "بورجونو" الذي يعرفه حق المعرفة رآه وحادثه. قلت:

- ما الذي ترمي إليه بربك؟ ولكنه مضى في حديثه قائلاً:

- كان هذا في صباح يوم الجمعة، وقد رثي لآخر مرة في الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم... لكن هل رثي حقاً؟
- إن البواب...

- إنه بواب ليلي لم تسبق له رؤية "هاليداي"، وهذا رجل يقبل إلى الفندق، ويشبه "هاليداي" شبهاً كبيراً (وبوسعنا أن نثق ببراعة صديقنا رقم 4 في مثل هذا الشأن) وبعد أن يسأل عن رسائل يصعد إلى الطابق الأعلى، ويأخذ حقيبة صغيرة وينسل من الفندق في صباح اليوم التالي ولم ير أحد قط "هاليداي" في ذلك المساء؛ لأنه كان قد وقع في قبضة أعدائه، ولنسأل أنفسنا الآن هل كان "هاليداي" حقاً هو الذي استقبلته السيدة "أوليفيه"؟ أجل، فما كان في وسع أي دعي محتال أن يخدعها وهو يتحدث في موضوع تخصصت فيه، لقد جاء إلى هنا،

واجتمع بالسيدة التي أراد لقاءها، وانصرف فماذا حدث بعد ذلك؟ وقبض "بوارو" ساعدي وراح يجرنى جراً نحو البيت وهو يقول:

– والآن يا صديقي تخيل أننا في اليوم التالي ليوم حادث الاختفاء، وأننا نقتفي آثار الأقدام، إنك تحب آثار الأقدام... أليس كذلك؟ انظر... ها هي آثار أقدام رجل... السيد "هاليداي"، وها هو ذا يميل إلى اليمين كما فعلنا، ويمشي مسرعاً. آه! ها هي أقدام أخرى تجد في أثره مسرعة... أقدام صغيرة... أقدام امرأة، وها هي ذي تدركه... وهي امرأة رشيقة فتية تسدل على وجهها نقاب الحداد، وتقول له "معذرة يا سيدي... إن السيدة "أوليفيه" تطلب عودتك إليها" ويقف السيد "هاليداي" وينثنى إليها، فإلى أين تأخذه هذه المرأة الفتية؟ إنها لا تريد أن يراها أحد بصحبته، فهل كان من المصادفات أنها لحقت به حيث يتفرع ممشى ضيق يفصل بين حديقتين! وها هي ذي تسير به في هذا الممشى زاعمة أنه أقصر من الممشى الرئيسي، وإلى اليمين حديقة بيت السيدة "أوليفيه"، وإلى اليسار حديقة بيت آخر... ومن تلك الحديقة سقطت الشجرة التي كادت تقضي علينا، وأبواب الحديقتين تفتح على هذا الممشى، وهناك الكمين المنسوب لصديقنا "هاليداي" فينقض منه الرجال عليه ويحملونه إلى ذلك البيت الذي لا تشغله السيدة "أوليفيه".

– يا لله يا "بوارو"! أتزعم أنك ترى كل هذا؟

– إنني أراه بعين العقل يا صديقي، فلا يمكن أن يكون الأمر قد وقع إلا على هذه الصورة، هيا بنا نعود إلى منزل السيدة "أوليفيه".

– أتريد أن تقابلها ثانية؟ فابتسم "بوارو" ابتسامة غريبة وقال:

– كلا يا "هاستنجز"، إنني أريد رؤية وجه سيدة السلم.

– أظن أنها إحدى قريبات السيدة "أوليفيه"؟

– بل أرجح أنها سكرتيرة التحقت بخدمتها منذ عهد غير بعيد. وفتح لنا الباب

الغلام نفسه الذي فتحه لنا أول مرة فقال له "بوارو":

– هل تستطيع أن تخبرني باسم السيدة التي تلبس شارة الحداد والتي دخلت الآن؟

– السيدة "فيرونو"؟ سكرتيرة سيدتي؟

– هذه هي، هل تتفضل بإبلاغها أننا نريد محادثتها لحظة؟

– إنني آسف إذ لا شك في أن السيدة "فيرونو" قد خرجت ثانية. فقال "بوارو" بهدوء:

– لا أظن ذلك، فهل لك أن تعطيها اسمي "هركيول بوارو" وتخبرها بأنه من الضروري جداً أن أراها في الحال إذ إنني ذاهب إلى إدارة الأمن؟

وغاب رسولنا ثم هبطت السيدة السلم وصرنا معها إلى قاعة الاستقبال، وعند ذلك استدارت إلينا وأماطت نقابها فكادت أصعق دهشة إذ رأيت أمامنا عدوتنا القديمة الكونتيسة "روساكوف"، وهي "كونتيسة" روسية سبق أن أشرفت على سرقة بعض المجوهرات في "لندن" بطريقة بارعة. وقالت شاكية:

– لم أكد أراكما في الردهة حتى أيقنت بأسوأ العواقب.

– يا عزيزتي الكونتيسة "روساكوف" ... فهزت رأسها قائلة:

– إنني الآن "إينيز فيرونو"، إسبانية متزوجة برجل فرنسي فما الذي تريد مني يا سيد "بوارو"؟ إنك لرجل رهيب هائل فقد ألجأتني إلى الرحيل عن "لندن"، أكبر ظني أنك ستطلع السيدة "أوليفيه" على حقيقتي وتضطرني إلى الرحيل عن "باريس" ! لعلك تعرف أنه لا بد لنا من العيش نحن الروس المساكين. فقال "بوارو" وهو يلاحظها:

– بل الأمر أجل من ذلك يا سيدتي، إنني معتمزم دخول الفيلا المجاورة وإنقاذ السيد "هاليداي" ... إذا كان لا يزال حياً، وهانتذي ترين أنني أعرف كل شيء. ورأيت الاصرار يكسو وجهها وهي تعض على شفتها، ثم قالت في ثباتها المألوف:

– إنه حي ... ولكنه ليس في الفيلا، سأعقد معك صفقة يا سيدي ... حرיתי ... مقابل تسليم السيد "هاليداي" سليماً معافى إليك. فقال "بوارو":

- قبلت وقد كنت على وشك اقتراح هذه الصفقة بنفسى، وبهذه المناسبة هل أنت فى خدمة "الأربعة العظام" يا سيدتى؟ ورأيت الاصفرار يصبغ وجهها من جديد ولكنها لم تجب بل سألتها:

- أسمح لى باستخدام التليفون؟ واجتازت القاعة حيث طلبت رقما معيناً ثم تابعت قائلة:

- إنه رقم الفيلا المسجون بها صديقنا الآن، وفى وسعك أن تعطيه لرجال البوليس فسيكون الوكـر خاليا عندما يقبلون. آه! هذا أنت يا "أندريه"؟ أنا "إينيز"، إن البلجيكي الصغير يعرف كل شيء. أرسلوا "هاليداي" إلى الفندق وارحلوا فى الحال. وأعدت السماعة إلى مكانها وسارت إلينا مبتسمة... وقال "بوارو":

- ستصحبينا إلى الفندق يا سيدتى.

- بالتأكيد، لقد كنت أتوقع ذلك. فلما وصلنا إلى الفندق قيل لنا إن ممرضة جاءت برجل يبدو عليه السقم والمرض ثم انصرفت، وإنه ينتظرنا فى غرفتنا. وصعدنا إلى الغرفة مسرعين فرأينا شابا بادي الضعف والإعياء... وسأله "بوارو":

- هل أنت "جون هاليداي"؟ فأومأ الرجل بالإيجاب، وقدمنا إليه كأساً من الشراب أنعشته وردت إليه بعض قوته فانطلق يقول:

- يا إلهى! لقد كنت فى الجحيم! زوجتى... أين هى؟ ماذا تظن بى؟ لقد أخبرنى أولئك الشياطين بأنها تعتقد... تعتقد... قال "بوارو":
- إنها لا تظن بك سوءاً قط ولم تهـن ثقتها بك... وهى الآن فى انتظارك... هى وطفلتك.

- حمدا لله! إنى لا أكاد أعتقد أنى غدوت حراً.

- والآن وقد تمالكـت شيئاً من قواك يا سيدى فإنى أحب أن أسمع قصتك من أولها. فراح "هاليداي" يرمقه فى ذعر ثم قال:

- لا أتذكر شيئاً.

- ماذا؟

– هل سمعت بـ"الأربعة العظام"؟ أجاب "بوارو" بجفاء:

– سمعت عنهم قليلا .

– لست تعرف ما أعرف، إن لهم قوة لا حد لها، وأنا آمن ما لزمتم الصمت، أما إذا نطقت بكلمة واحدة فستحل بي وباعز الناس عليّ أمور رهيبة... لا تجادلني...
إني أعرف ما هناك. لا أتذكر شيئا. ونهض "هاليداي" وغادر الغرفة. وعلت محيا
"بوارو" سمات الغيظ والحلق وهو يغمغم:

– إن "الأربعة العظام" يفوزون مرة أخرى... ما الذي بيدك يا "هاستنجز"؟
وناولته ما طلب قائلا:

– لقد خطتها "الكونتيسة" قبل انصرافها. وقرأ "بوارو" الرقعة:

– إلى الملتقى "أ. ف" وقال:

– إنها موقعة بالحرفين الأولين من اسمها "أ. ف" وقد يكون الأمر مجرد مصادفة،
لكن هذين الحرفين بالإفرنجية يعنيان أيضا رقم أربعة!

– 7 –

أمضى "هاليداي" ليلته بالغرفة المجاورة لغرفتنا في الفندق، وعبثا حاولنا أن نقف
منه على شيء من المعلومات في الصباح إذ كان لا يزيد على القول إنه على علم
بالقوة الهائلة التي تحت تصرف "الأربعة العظام"، وإنه إذا نطق بكلمة نزل به أشنع
الانتقام، ولم يلبث أن رحل إلى "إنجلترا"، وت خلفنا نحن في "باريس". وكان
الرأي عندي أن نبادر إلى العمل السريع، فراعني أن آتس من "بوارو" السكون
والجمود، وقلت:

– ناشدتك الله يا "بوارو" أن تدعنا نهب للعمل والالتقاء بهم؟

– عجيب يا صديقي... عجيب! عمل ماذا؟ والالتقاء بمن؟ أتوسل إليك أن
يكون كلامك واضحا.

– الالتقاء بـ"الأربعة العظام" بالتأكيد.

– هذا غني عن الإيضاح، لكن كيف تشرع في ذلك؟ قلت في شيء من التردد:

– فلنلجأ إلى رجال البوليس . فابتسم "بوارو" قائلاً:
– سوف يتهمونا بالتخريف والهديان، ليس أمامنا ما نتخذه أساساً للعمل، ولا مندوحة لنا من التريص والانتظار .
– ننتظر ماذا؟

– ننتظر حتى يقوم أعداؤنا بحركة . إن دورنا هو أن نترك الجانب الآخر يشن الهجوم .

– وهل تظن أنهم يفعلون ذلك؟
– ليس عندي أدنى ريب، فقد حاولوا إبعادي عن "إنجلترا" وفشلوا، ثم تدخلنا في حادث "دارتمور" وأنقذنا ضحيتهم من المشنقة، وبالأمر تدخلنا كذلك في خططهم ومشروعاتهم، وهيهات أن يتركوا الأمر يقف عند هذا الحد . وبينما أنا أفكر فيما قال سمعنا طرقة على باب الغرفة ودخل رجل وأغلق الباب خلفه دون أن ينتظر الإذن بالدخول، وكان نحيف البنية، طويل القامة، شاحب اللون، يلبس معطفاً مزرراً حتى عنقه، وقبعة رخوة مرخاة على جبينه، وقال بصوت ناعم:
– معذرة أيها السيدان في دخولي على هذا النحو، إن مهمتي غير عادية في حقيقتها . وسار إلى المنضدة وجلس أمامها، فهممت بالوثوب من مكاني، لكن "بوارو" أومأ إليّ بالسكون وقال للرجل:

– إن دخولك غريب حقاً يا سيدي، فهل تفضل بإيضاح مهمتك؟
– إنها سهلة جداً يا عزيزي السيد "بوارو"، لقد سببت كثيراً من المضايقة لأصدقائي .

– بأي طريقة؟
– إنك غير جاد في هذا السؤال يا سيد "بوارو"؟ وإنك لتعرف من الأمر ما أعرف .

– إن ذلك يتوقف على معرفة من هم أصدقاؤك .
ودون أن ينبس الرجل بحرف أخرج من جيبه علبة سجائر أخذ منها أربع سجائر

لقاها على المنضدة، ثم تناولها وأعادها إلى العلبة ووضعها في جيبه. فقال "بوارو":

— آه! وما الذي يقترحه أصدقاؤك؟

— هم يقترحون يا سيدي أن تستخدم مواهبك العظيمة في مكافحة الجريمة العادية. وأن تعود إلى أعمالك القديمة وتعني بحل مشاكل سيدات مجتمعات "لندن".

— إنه برنامج يكفل الدعة والهدوء، لكن هب أنني لم أقبل؟ فأتى الرجل بإشارة بليغة المعنى وقال:

— سنأسف لذلك أشد الأسف بالتأكيد كما سيأسف له جميع أصدقاء "بوارو" العظيم ومحبيه، لكن الأسف مهما كان عميقا لا يرد الميت إلى الحياة. وأوما "بوارو" وهو يقول:

— إنك لدقيق في التعبير... وهب أنني قبلت؟

— إنه مفوض إليّ في هذه الحالة أن أقدم إليك تعويضا. وأخرج من جيبه حافظة نقود أخذ منها عشر ورقات مالية كل منها بعشرة آلاف فرنك وألقى بها على المنضدة وهو يقول:

— هذه ضمان لحسن نيتنا، وسندفع إليك عشرة أضعافها. وغلى الدم في عروقي من وقاحة الرجل وجراته وهممت بالوثوب عليه، لكن "بوارو" أشار إليّ إشارة أمر بالبقاء في مكاني وقال:

— اجلس يا "هاستنجز" واكتب طبيعتك الجميلة الشريفة. أما أنا يا سيدي فإني أقول لك هذا: ما الذي يحول بيني وبين الاتصال تليفونيا برجال البوليس لتسليمك إليهم بينما يحول صديقي هذا دون فرارك؟ فقال زائرا بهدوء:

— افعل ذلك إذا كنت تراه من الصواب. وصحت غاضبا:

— إنني لا أطيق هذا يا "بوارو"... استدع رجال البوليس ولننته من أمره! وأسرعت إلى الباب فجعلته وراء ظهري، وما كاد "بوارو" يرفع السماعه حتى وثب الرجل في خفة الفهد، ولكنني كنت متأهبا له فلم تمض دقيقة واحدة حتى

التحمتنا في صراع عنيف، ثم شعرت به يضعف ويتخاذل ويتهاافت على الأرض أمامي، لكن أمرا عجبيا وقع في غمرة الفوز والانتصار، فقد شعرت بنفسني أندفع إلى الأمام طائرا في الهواء، ثم اصطدم رأسي بالحائط وسقطت على الأرض، وسرعان ما نهضت من سقطتي، لكن الباب كان يغلق خلف خصمنا وأسرت إليه أريد فتحه فالفيتة مقفلا من الخارج، وانتزعت سماعة التليفون من يد "بوارو" واتصلت بإدارة الفندق طالبا اعتقال الرجل بعد أن أدليت إليهم بأوصافه، وبعد بضع دقائق سمعنا ضجة في المشى خارج الغرفة، وفتح الباب ودخل مدير الفندق وموظفوه قائلين إنهم لم يعثروا على أحد تنطبق عليه الأوصاف التي ذكرتها لهم، وسألهم "بوارو" بصوته الوديع:

— لعلكم لقيتم أحدا من مستخدمي الفندق؟

— لم نلق سوى خادم يحمل صحيفة يا سيدي. فقال "بوارو" بعد انصرافهم:

— هذا هو السبب إذن في أنه كان يزور معطفه حتى ذقته. وغمغمت في أسي

واضح:

— إنني آسف جداً يا "بوارو"، فقد ظننت أنني تغلبت عليه واستنزفت قواه.

— إنها حيلة يابانية فيما أظن يا صديقي فلا تحزن، لقد جرى كل شيء طبقا للخطة، خطته، وهذا هو ما كنت أبغي. وهتفت وأنا أقفز إلى شيء رمادي ملقى على الأرض:

— ما هذا؟ وكان الذي وجدته محفظة خفيفة من الجلد الاسمر سقطت من جيب خصمي في أثناء صراعنا دون ريب، وكان بها كمبيالتان مؤشرا عليهما بالسداد باسم "فيلكس لاون"، ورقة مطوية من الورق خفق لها قلبي خفقانا شديدا، فقد خطت عليها كلمات على أعظم قدر من الأهمية والخطورة: "الاجتماع التالي للمجلس يعقد يوم الجمعة في رقم 34 بشارع "ديزيشيل" في الساعة الحادية عشرة صباحا" وكان التوقيع رقم 4 بخط كبير واضح.

وإن اليوم لهو يوم الجمعة، وها هي ساعة الموقد تشير إلى أن الساعة هي العاشرة والنصف وهتفت جذلا:

– لله ما أعظم هذه الفرصة! إن الأقدار تجري وفق مصلحتنا ويجب أن نقوم في الحال. بيد أن "بوارو" غمغم قائلاً:

– هذا هو سبب مجيئه إلينا إذن إنني لأرى الآن كل شيء.

– ترى ماذا؟ هيا بنا يا "بوارو" ولا تقيع هناك مستسلماً للأحلام. فنظر إليّ ثم هز رأسه وهو يبتسم قائلاً:

– ألا تذكر القصة التي تتغنى بها الممرضات لأطفالكم، قصة العنكبوت الذي تتدرج الذبابة إلى شركه؟ كلا... كلا. إنهم دهاة ماكرون، ولكنهم لا يماثلون "هركيول بوارو" دهاء ومكراً.

– ما الذي تعنيه بربك يا "بوارو"؟

– لقد كنت أسائل نفسي يا صديقي عن سر هذه الزيارة، أكان زائري يطمع حقيقة في رشوتي؟ أم في إرهابي وحملتي على التخلي عن واجبي إذا أخفق في الرشوة؟ كان عسيراً أن أصدق أحد الأمرين، فلماذا جاء إذن؟ وهأنذا أرى الآن الخطة كلها، وهي دقيقة بارعة محكمة: التظاهر بمحاولة رشوتي أو إرهابي... ثم الشجار الذي كان نتيجة محتومة لعرضه المهين والذي لم يحاول تجنبه والذي كان مقرراً أن يتسبب في سقوط المحفظة من جيبه فيبدو ذلك أمراً طبيعياً معقولاً، وأخيراً الشرك! شارع "ديزيشيل" في الساعة الحادية عشرة؟ خاب فالهم! إن "هركيول بوارو" لا يقتنص بهذه السهولة، لكن ثمة أمراً واحداً لا أفهمه.

– وما هو؟

– الموعد يا "هاستنجز"... الموعد، إذا كانوا يريدون استدراجي أفليس الليل أوفق لهم؟ لماذا هذه الساعة المبكرة؟ أيمن أن يكون ثمة أمر يوشك أن يحدث هذا الصباح ولا يريدون أن يعلم به "هركيول بوارو"؟ ثم هز رأسه مستطرداً:

– سوف نرى، ولن نبرح مكاننا هذا الصباح يا صديقي سنرقب الحوادث هنا.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف تماماً تلقينا دعوة من السيدة "أوليفيه" التي زرناها بالأمس بصدد اختفاء "هاليداي" تطلب إلينا موافاتها في بيتها بضاحية

"باسي" في الحال فلبينا الدعوة دون أن نضيع لحظة واحدة. واستقبلتنا السيدة "أوليفيه" بالصالون الصغير نفسه الذي اجتمعنا بها فيه بالأمس، فراعني من جديد ما يتجلى في وجهها المستطيل، الذي يشبه وجوه الراهبات وعينيها المشتعلتين بآيات القوة والعزم، وقالت دون أي تمهيد :

– لقد زرتاني بالأمس أيها السيدان بصدد اختفاء السيد "هاليداي"، وعلمت الآن أنكما عدتما إلى البيت بعد انصرافكما وطلبتما مقابلة سكرتيرتي "إينيز فيرونو"، وقد خرجت معكما ولم تعد بعد ذلك.

– أهذا كل شيء يا سيدتي؟

– كلا يا سيدي، لقد حدث سطو على العمل في الليلة الماضية وسرقت منه أوراق مذكرات مهمة، وحاول اللصوص الحصول على شيء أثمن من تلك الأوراق والمذكرات، ولكنهم أخفقوا في فتح الخزانة الكبيرة لحسن الحظ.

– إن سكرتيرتك السابقة يا سيدتي هي في الحقيقة الكونتيسة "روساكوف" من مهرة اللصوص، وهي المسؤولة عن اختفاء السيد "هاليداي"، فكم مضى عليها في خدمتك؟

– خمسة أشهر يا سيدي، وإن ما تقول ليدهشني أشد الدهشة.

– ولكنه مع ذلك حق لا ريب فيه، والآن هل كانت تلك الأوراق من السهل الوصول إليها؟ أم كان هذا يقتضي إلاما بدخائل العمل؟

– إن معرفة اللصوص بمكانها تدعو إلى شيء من العجب، فهل تعتقد أن "إينيز"...

– ليس لدي شك في أنها أمدتهم بالمعلومات، لكن ما هذه الأشياء الثمينة التي أخفق اللصوص في الوصول إليها؟ مجوهرات؟

– بل شيء أثمن من ذلك يا سيدي، راديوم.

– راديوم؟

– أجل يا سيدي، إنني الآن في أشد مراحل أبحاثي تعقيداً وإنني أملك مقدارا

صغيراً من الراديوم، لكن بعض الهيئات أعارتني كمية أخرى منه لإتمام مهمتي، وهذه الكمية هي معظم ما يملكه العالم من هذا المعدن النادر، وتبلغ قيمتها ملايين الفرنكات، وهي مخبوءة في صندوق من الرصاص بالخزانة الكبيرة التي يبدو منظرها عادياً بسيطاً عن قصد وتعمد، لكن فتح أقفالها من أصعب الأمور.

– وما المدة التي سيظل هذا الراديوم إبانها في حوزتك يا سيدتي؟
– يبقى عندي يومين آخرين يا سيدي ثم أختتم أبحاثي. فالتمعت عينا "بوارو" وقال:

– وهل "إينيز فيرونو" سكرتيرتك السابقة على علم بذلك؟
– نعم.

– حسناً... سيعود أصدقائنا إذن، لا تتحدثي عني بكلمة واحدة يا سيدتي، كوني على ثقة بأنني سأنقذ كنزك الثمين، هل عندك مفتاح للباب المفضي إلى الحديقة؟

– نعم يا سيدي، وما هو ذا وعندي نسخة أخرى منه، وما هو كذلك مفتاح باب الحديقة الذي يفتح على الممشى الفاصل بين بيتي والبيت المجاور.

– أشكرك يا سيدتي، نامي الليلة مطمئنة ناعمة البال واتركي لي كل شيء، لكن لا تنطقي بكلمة واحدة... ولا إلى مساعدك. إنهما يدعيان الآنسة "كلود" والسيد "هنري"؟ لا تقولي لهما كلمة واحدة بصفة خاصة. وغادر "بوارو" الفيلا وهو يفرك كفيه راضياً مغتبطاً، فسألته:

– ما الذي تنتوي عمله الآن؟

– نغادر الآن "باريس" إلى "إنجلترا" يا عزيزي "هاستنجز".

– ماذا؟

– سنحزم أمتعتنا وتناول غداءنا ثم نستقل سيارة إلى محطة الشمال.

– لكن الراديوم؟

– لقد قلت يا عزيزي "هاستنجز" إننا راحلنا إلى "إنجلترا"، ولكنني لم أقل إننا سنصل إليها، فكر في الأمر يا صديقي، إننا تحت مراقبة دقيقة صارمة لا تغفل عنا

لحظة ولا تغيب عنها حركة من حركاتنا، ويجب أن ندخل في روع أعدائنا أننا عائدان إلى "إنجلترا"، ولن يصدقوا هذا إلا إذا رأونا نستقل القطار ويسير بنا.

– أتعني أن ننسل من القطار ثانية في آخر لحظة؟

– كلا يا "هاستنجز"، فلن يقتنع أعداؤنا بأقل من رحيلنا فعلا.

– لكن القطار لا يقف قبل "كاليه"؟

– سيقف إذا دفعنا ثمن وقوفه، ألم تلاحظ يا صديقي المقبض الذي تعطى بواسطته إشارة الوقوف في حالات الطوارئ؟ إن جزءا من يديه خطأ مائة فرنك فيما أظن؟

– أو تعتزم إدارة هذا المقبض لإيقاف القطار؟

– بل سيتولى ذلك صديق لي يدعى "بيير كومبو"، وبينما يكون في جدل محتدم مع كومسارية القطار محدثا ضجة عالية تشغل الركاب جميعا، ننسل نحن دون أن يفتن إلينا أحد.

وجرت الأمور وفقا لخطة "بوارو" تماما، فأوقف القطار عندما بلغ مشارف "باريس" وأثار "بيير كومبو" ضجة عالية من الطراز الفرنسي الأول! فانسلت أنا و"بوارو" من القطار ولم يشعر بنا أحد وكان يجب بعد ذلك أن نغير هيتنا، وكان "بوارو" قد استعد لذلك فجاء معه بجميع أدوات التنكر، ولم يمض غير قليل حتى تحولنا إلى متشردين من ذوي الثياب الزرية القذرة، عائدين إلى "باريس".

وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة عندما وصلنا إلى فيلا السيدة "أوليفيه"، فرحنا نتطلع بمنة ويسرة متفحصين الطريق قبل أن ننسل إلى الممشى الصغير، وقد بدا المكان كله ساكنا موحشا كأنه مقفر من الأحياء، وكنا على تمام اليقين من أنه لا يقتفي أثرنا أحد. وهمس "بوارو" في أذني:

– لا أتوقع أن يكون اللصوص هنا الآن، وقد لا يأتون إلا في الليلة المقبلة، ولكنهم يعلمون تمام العلم أن الراديو لم يكن هناك سوى ليلتين.

وأدركنا المفتاح في باب الحديقة بحذر شديد فانفتح دون أن يحدث صوتا، ودلفنا

إلى الحديقة. وعند ذلك حلت الضربة فجأة في سرعة البرق الخاطف فحوصرنا وكمننا وشد وثاقنا، ولم يكن في انتظارنا أقل من عشرة رجال، فلم تكن المقاومة لتجدينا شيئا. وكدت أصعق دهشة إذ حملونا إلى بيت السيدة "أوليفيه" نفسه دون أي مكان آخر ودخلوا بنا إلى العمل، وانحنى أحد الرجال أمام الخزانة الكبيرة، فدار بابها وانفتح، وشعرت برعدة عنيفة تتمشى في مفاصلي خوفا من أن يحشرونا فيها ويتركونا نموت اختناقا. وشد ما ازددت دهشة وعجبا عندما أبصرت بداخلها سلما يهبط تحت الأرض، ونزل بنا الرجال وساروا في ممر ضيق انتهى إلى قاعة فسيحة، وكانت تقف بها امرأة طويلة القامة مهيبة الهيئة، وهي ترخي على وجهها قناعا من المخمل الأسود وكانت إشارتها الآمرة تنبئ بأنها سيدة الموقف المطاعة، وألقى بنا الرجال على الأرض وتركونا وحدنا مع تلك المرأة المقتعة التي لم يعد لدي أدنى شك في حقيقتها، إنها بلا ريب الفرنسية المجهولة... رقم 3 من "الأربعة العظام".

وجثت بجانبنا ورفعت الكمامتين، ولكنها تركتنا موثقين، ثم نهضت ووقفت أمامنا، بحركة سريعة من يدها أماطت اللثام عن وجهها. لم تكن سوى السيدة "أوليفيه" ! قالت بصوت منخفض ساخر:

- السيد "بوارو" ! السيد "بوارو" العظيم العجيب الذي لا كفاء له ولا نظير لقد أرسلت إليك صباح أمس تحذيرا، ولكنك طويت دونه كشحا، وظننت أن بوسعك التصدي لنا ومناصبتنا العداء. وهانذا الآن هنا.

وكان يتجلى في حركاتها وصوتها من الحقد والبغضاء ما هالني وأفعم نفسي رهبة وجزعا، إنها مجنونة... جنون العبقرية والذكاء! ولم يحر "بوارو" جوابا، بل راح يشخص ببصره إليها وقد ارتسمت على وجهه سمات الخيبة والقنوط، وقالت:

- وهذه هي النهاية على كل حال، فما يسعنا أن نسمح لأحد بالتدخل في خططنا، فهل لك من مطلب قبل أن تغادر الحياة؟

ولا أنكر أنني لم أشعر قط بأني أدنى إلى الأبدية مما كنت في تلك اللحظة، أما

"بوارو" فكان رائعا في موقفه إذ لم تنبض له فريضة ولم يحل لونه، بل مضى يلاحظها في جد واهتمام. وقال بهدوء:

- إنه ليحزنني حقاً ألا يتسع لي الوقت لدراستك من الناحية السيكلوجية يا سيدتي. أجل... إن لي رجاء... إن كل محكوم عليه بالإعدام يسمح له بتدخين آخر سيجارة في حياته فيما أظن، ومعني علبة سجائري، فإذا أذنت. ونظر إلى الأصفاة التي تغل يديه... فضحكت المرأة قائلة:

- نعم! أتحب أن أحل يدك؟ إني لأعلم أنك ذكي أريب يا سيد "هركيول بوارو". لن أحل يدك ولكني سأعطيك سيجارة. وجثت بجانبه فأخرجت علبة سجائره وأخذت منها سيجارة وضعتها بين شفتيه ثم نهضت وهي تقول:

- سأتيك الآن بعود ثقاب.

- هذا غير ضروري يا سيدتي. وكان في صوته ما راعني وأذهلها، واستطرد "بوارو" قائلاً:

- أرجو ألا تأتي بحركة يا سيدتي وإلا ندمت، هل تعرفين شيئا من خواص الكيوار؟ إن هنود "أمريكا الجنوبية" يستعملونه في تسميم سهامهم، إذ إن أقل خدش به يعقبه الموت، وبعض القبائل تستعمله في قصبة صغيرة ينفخونه بواسطتها، وعندى كذلك قصبة صغيرة يخالها الناظر سيجارة، وليس عليّ إلا أن أنفخ فيها. آه إنك تنتفضين، لا تتحركي يا سيدتي، فإن نفخة واحدة في هذه القصبة ترسل منها سهما دقيقا جداً كشوكة السمك لا تخطئ هدفها، وأنت لا تريدين أن تموتي يا سيدتي، فأرجو أن تحلي قيود صديقي "هاستنجز"، إنني مقيد اليدين، لكن بوسعي تحريك رأسي، فانت في مرمى هذا السهم القاتل أينما اتجهت يا سيدتي، وإنني لأرجو مخلصا ألا تركبي متن الشطوط وتقتربي خطأ يودي بك. وصدعت المرأة بأمره وهي تتلظى غضبا وغيظا، فغدوت حراً طليقا، ثم طلب إليّ "بوارو" أن أشد وثاقها بالحبال التي تخلصت منها، وبعد ذلك حللت وثاقه، فانحنى عليها قائلاً:

- إن "هركيول بوارو" لا يقضى عليه بهذه السهولة يا سيدتي، طاب مساؤك .
وكان من حسن الحظ أنها كانت قد صرفت أتباعها فلم تصادفنا أية عقبة في
مغادرة البيت ... وسرعان ما اجتزنا الحديقة وابتعدنا عن تلك الناحية، وعند ذلك
انطلق "بوارو" يقول:

- إنني حقًا لحيوان تعس وأحمق مغفل ... فقد كنت أباهي بعدم الوقوع في
شركهم، مع أنهم لم يقصدوا به أن يكون شركا إلا في الطريقة التي وقعت بها في
أحبولتهم ... كانوا يعلمون أنني سأبين الحقيقة الخفية، وبنوا خطتهم على ذلك .
وهذا يفسر السهولة التي سلموا بها "هاليداي" ... كما يفسر كل شيء آخر ...
وقد كانت السيدة "أوليفييه" الروح المحرك ... أما "فيرا روساكوف" فلم تكن
سوى مساعدة لها ... وكانت السيدة "أوليفييه" تريد الوقوف على آراء
"هاليداي"، ولها من عبقريتها ما يكفل إتمام النقص وسد الشغرة . نعم يا
"هاستنجز" . إننا نعرف الآن رقم 3 ... المرأة التي قد تكون أعظم علماء العالم ...
تصور هذا ... دهاء الشرق، وعلم الغرب، وشخصيتان أخريان لا نزال نجهلهما،
لكن يجب أن نبحث، وسنعود غدا إلى "لندن" وننظر في ذلك .

- 8 -

الفينا عند عودتنا إلى "لندن" عدة رسائل باسم "بوارو" ... وقرأ إحداها وهو
يبتسم ابتسامة عجيبة، ثم ناولني إياها لأقرأها، فنظرت أولا إلى توقيعها ورأيت أنه
"أيب رايلاند" فتذكرت قول "بوارو" إنه أغنى رجل في العالم، وكانت رسالة
السيد "رايلاند" حازمة شديدة اللهجة أعرب فيها عن عدم اقتناعه بالأسباب التي
أبداها "بوارو" للانسحاب من مهمة "أمريكا الجنوبية" في آخر لحظة ... وقال
"بوارو":

- ألا يبعث هذا على مزيد التمعن والتفكير؟ أجبت :
- ليس غريبا أن يغضب الرجل بعض الغضب من انسحابك ...

– كلا... كلا... أنت لا تفهم، اذكر كلمات "مايرلنج"، الرجل الذي لجأ إلينا فلقى مصرعه بيد أعدائه، لقد قال إن رقم 2 يرمز إليه بحرف "س" بالإنجليزية يقطعه خطان صغيران، وهي علامة الدولار، وبخطين ونجمة. ومن ذلك يستنتج أنه أمريكي وأنه يمثل قوة المال، فإذا أضفت إلى ذلك أن "رايلاند" عرض مبلغا ضخما لإغرائني بالرحيل عن "إنجلترا" فماذا يكون رأيك؟ قلت وأنا أحملق إليه مشدوها: – اتعني أنك تشبته في أن "أيب رايلاند" صاحب الملايين هو رقم 2 من "الاربعة العظام"؟

– ما أسرع ما فهمت مرادي بذكائك الوقاد. أجل... إني أظن أنه كذلك... إن السيد "رايلاند" هذا سبى السمعة في الأوساط المالية... فهو رجل عظيم المقدرة، لا ضمير له ولا مبدأ، وتحت يده كل ما يريد من المال، وهو يسعى إلى سلطان لا حد له... على أنني لست واثقا بصحة رأيي كل الثقة، ولو أتيح لي أن أكون على يقين من أن "أيب رايلاند" هو رقم 2 بصفة قاطعة لأصبحنا من هدفنا قاب قوسين أو أدنى. ولاحظت من الرسالة أن المليونير الأمريكي قد هبط "لندن" حديثا فاقترحت على "بوارو" أن يزوره ويقدم إليه اعتذاره بنفسه... وبعد يومين عاد "بوارو" إلى البيت وهو في أشد حالات الانفعال وقبض على كلتا يدي قائلا:

– لقد سنحت لنا فرصة عظيمة يا صديقي... فرصة لن يجود الدهر بمثلها... ولكنها قد تنطوي على خطر عظيم لن أسألك التعرض له... وأخيرا سكن انفعال "بوارو" قليلا وأطلعني على خطته... فقد كان "رايلاند" يطلب سكرتيرا على علم بآداب المجتمعات الراقية وتقاليدها، وكان من رأي "بوارو" أن أتقدم للحصول على هذه الوظيفة... قال:

– إني لأود القيام بذلك بنفسي لولا استحالة تنكري في الهيئة المناسبة لهذه الوظيفة يا صديقي... إني لا أتكلم الإنجليزية بطلاقة إلا عندما أكون منفعلا، لكن لهجتي مع ذلك لا تخدع الأذن... ثم إني لو ضحيت حتى بشاربي لكان من السهل مع ذلك معرفة "هركيول بوارو"... وأعربت له عن استعدادي للاضطلاع

بهذه المهمة وإن كنت على ثقة بأن "رايلاند" لن يقبلني... فقال "بوارو" :

- بل يقبلك بلا ريب... فسأعد لك من الشهادات ما يجعله يشفق إلى استخدامك، وسيزكك وزير الداخلية شخصياً. ولما صارحته بأن في عبارته الأخيرة مبالغة غير معقولة قال :

- أجل... سيزكك... لقد أسديت إليه خدمة لا ينساها، وهو لا يتردد في إجابة أي طلب لي، بل هو أطوع لي من بناني، وكان أول ما فعلناه أن استقدمنا إخصائياً في فن المكياج لتغيير هيئتي، فلم ينقض نصف ساعة حتى كنت رجلاً آخر وقال "بوارو" :

- إن اسمك هو "آرثر نيفيل"... لاحظتك العناية يا صديقي فشده ما أشفق أن تتعرض لأعظم الأخطار.

وتقدمت إلى فندق "سافوي" في ساعة حددها السيد "رايلاند" وقلبي يخفق خفقاناً شديداً، وطلبت مقابلة الرجل العظيم... وبعد دقيقتين صعدوا بي إلى الجناح المخصص له... وكان "رايلاند" جالساً إلى منضدة وأمامه رسالة منشورة لحظتها بطرف عيني فرأيتها بخط وزير الداخلية... وكانت هذه أول مرة أرى فيها المليونير الأمريكي، فآثر منظره في نفسي رغماً عني... وكان طويلاً مخيفاً، له ذقن بارز، وأنف معقوف قليلاً، وعينان رماديتان تلتصعان التمعاع الصلب البارد تحت حاجبين كثيفين... وله شعر غزير مشعث، وفي جانب فمه سيجار أسود ضخمة علمت فيما بعد أنه لا يرى دونه. وقال في صوت خشن :

- اجلس... وجلست، فنقر بإصبعه على الرسالة المبسوطة أمامه مستطرداً :

- إنك البضاعة المطلوبة طبقاً لهذه الرسالة ولا حاجة بي إلى المزيد من البحث... هل أنت متمكن من الشؤون الاجتماعية؟ فاجبت بأنني أعتقد أن بوسعي إرضاء من هذه الناحية، فقال :

- إن ما أعنيه هو أنه إذا حضر إلى البيت الذي اتخذته في الريف كثير من الدوقات واللوردات والفيكونتات ومن إليهم، فهل تستطيع أن ترتب أماكنهم حول

المائدة طبقا للتقاليد؟ فقلت مبتسما:

- بكل سهولة. وبعد أن تفاهمنا في المسائل الأولية الحفني بخدمته، وكان السيد "رايلاند" يحتاج إلى سكرتير محيط بآداب المجتمع الإنجليزي وتقاليده، إذ كان له سكرتير أمريكي وكاتبة اختزال وبعد ذلك بيومين ذهبت إلى "هاتون تشيز"، وهو قصر ريفي استأجره المليونير الأمريكي من الدوق "أوف لومشير" لمدة ستة أشهر...

ولم ألق في عملي صعوبة ولا عناء؛ إذ سبق لي أن عملت سكرتيرا لأحد أعضاء البرلمان، فلم يكن هذا النوع من العمل غريبا عليّ، وكان السيد "رايلاند" عادة يدعو عددا كبيرا من الضيوف في عطلة الأسبوع، أما بقية الأيام فكانت تمضي في دعة وهدوء... وقليل ما كنت أرى السيد "أبلباي" السكرتير الأمريكي، ولكنه كان يبدو لي شاباً أمريكياً عادياً لين الجانب دمث الأخلاق متمكنا من عمله، أما الأنسة "مارتن" كاتبة الاختزال فكنت أراها كثيرا... وكانت فتاة حسنة تناهز الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، ذات شعر ناعم وعينين سمراوين مطرقتين دائما، وإن كانتا تستطيعان أحيانا العبث بالآللاب، ولاح لي أنها تبغض مخدموها وتستريب به، وإن كانت لم تصرح لي بشيء من ذلك حتى بعد أن ألفت نفسي بعد حين مستودع سرها وموضع ثقتها...

وكننت قد تفحصت حاشية البيت كلها وتتبع أحوالها... وكان بعض الخدم قد التحقوا حديثا بخدمة المليونير الأمريكي... أما الساقى ومديرة المنزل والطباخ فكانوا في خدمة "الدوق" الإنجليزي من قبل وارتضوا البقاء في القصر بعد تأجيرهم إلى "رايلاند"... وقد تفحصت الخادم "جيمس" بنوع خاص، ولكنني تبينت أنه خادم عادي، وأنه التحق بخدمة "رايلاند" بواسطة الساقى... أما الشخص الذي أثار شكوكي أكثر من سواه فهو "ديفز" تابع "رايلاند" الخاص، وقد أحضره معه من "نيويورك"... ومع أنه كان إنجليزي المولد لا غبار على سلوكه، فقد ظل موضع شكى وريبى...

وانقضى عليّ في قصر "هاتون تشيز" ثلاثة أسابيع دون أن يقع ما يؤيد رأينا؛ إذ لم يكن ثمة أي أثر لنشاط "الأربعة العظام"، وكان السيد "رايلاند" رجلاً ذا قوة وشخصية طاغيتين، ولكنني أخذت أشك في صدق نظر "بوارو" عندما اعتقد أن للرجل صلة بتلك الهيئة الرهيبة. بل لقد سمعته يذكر "بوارو" ذات مساء وهو جالس إلى المائدة مع مدعويه فيقول: "يقولون إنه رجل صغير عجيب... ولكنه لا يحفظ عهداً ولا يفني بوعده... فلقد عقدت معه صفقة ولكنه نقضها في آخر لحظة".

ثم جاءتني الأنسة "مارتن" كاتبة الاختزال بقصة على شيء من الغرابة، وكان السيد "رايلاند" قد ذهب إلى "لندن" ليقضي بها ذلك اليوم مستصحبا "أبلباي" معه... وخرجت مع الأنسة "مارتن" إلى الحديقة للتريض بعد تناول الشاي، وكنت أحبها كثيراً لبساطتها وبعدها عن التصنع والادعاء... وتبينت أن ثمة أمراً يعينها ويشغلها، وسرعان ما باحت بما يجول في خاطرها، قالت:

— لعلك لا تعرف يا "آرثر نيفيل" أنني أفكر فعلاً في الاستقالة من وظيفتي. فأبدت شيئاً من الدهشة... ومضت في حديثها:

— إنني أعلم أنها وظيفة حسنة لا يطمع في مثلها كثير من الناس، ولكنني لا أحتمل الامتهان وسوء المعاملة يا "آرثر نيفيل"، لا أحتمل أن يوجه إليّ هذا الرجل أقذع السب والشتم كأنه يخاطب أحد السوق... إن الرجل المهذب لا يسف إلى هذا الدرك...

— أيشتمك السيد "رايلاند"؟ فأومات برأسها بالإيجاب وقالت:

— إنه ضيق الصدر سريع الانفعال، لكن ثورته واحتياجه دون سبب شيء لا يطاق، لقد لاح لي أنه لا يبعد أن يفتك بي! ولم يكن لثورته من سبب إطلاقاً كما قلت... قلت وقد ازداد اهتمامي بحديثها:

— هل لك أن تخبريني بتفاصيل ما حدث؟

— إنني أفتح جميع الرسائل التي ترد للسيد "رايلاند" كما تعلم... وبعض هذه

الرسائل أسلمه إلى السيد "أبلباي"، وبعضها أتولاه بنفسي، ولكنني أقوم بالفرز الابتدائي كله... ومن بين ما يحمله إلينا البريد رسائل خاصة تكتب على ورق أزرق، وفي زاوية الظرف رقم 4 بخط دقيق، وهناك تعليمات مشددة بعدم فض هذه الرسائل وتسليمها سليمة إلى السيد "رايلاند"، وهي تعليمات أنفذها دائما، لكن البريد كان بالأمس ثقيلًا جدًا، فمضيت أفض الرسائل في سرعة مذهلة، وفتحت خطأ إحدى تلك الرسائل الزرقاء... وما كدت أفطن إلى خطئي حتى أسرعت بالرسالة إلى السيد "رايلاند" معذرة، فاستشاط غضبا كأنما أصابه مس من الجنون، حتى لقد خشيت منه على نفسي...

– وما الذي يتلك الرسالة حتى يندفع في الغضب على ذلك النحو؟

– لا شيء إطلاقًا، وهو أعجب ما في الموضوع... فلقد قرأتها قبل أن اتبين خطئي، وهي قصيرة موجزة لا أزال أذكرها. وقد كتبتها كما يلي دون أن تعترض: «سيدي العزيز... إن المهم في رأيي هو ذهابكم للعقار... وإذا امتدت للمحجر الصفيقة فإن مبلغ سبعة عشر ألفا معقول، أما 11 في المئة فكثيرة، وأربعة في المئة مناسبة كل المناسبة...»

"آرثر ليفرشام"

واستطردت الآنسة "مارتن" تقول:

– إنه لو اوضح أن الرسالة خاصة بعقار يفكر السيد "رايلاند" في شرائه، ولكنني أشعر بأن الرجل الذي يستبد به الغضب لمثل هذا السبب التافه خليق بأن يخشى شربه... فما رأيك يا "آرثر نيفيل"؟ إنك أكثر مني خبرة بالحياة... فرحت أواسيها وأسكن جاشها حتى انصرفت وقد ذهب ما بها من الخوف والإشفاق، لكن لم يذهب ما ساورني من الشك والريب...

وظللت أفكر في هذه الرسالة طوال المساء ومعظم النهار التالي وأنا لا أرى بها ما يريب سوى رقم 4 الذي كان مكتوبا في زاوية غلافها كما أخبرتني الفتاة... ثم تكشف لي الحل فجأة وهو حل سهل أيضا... فرقم 4 هو مفتاح الرسالة، وما

كدت أسقط كل ثلاث كلمات وأقرأ الرابعة حتى خرجت برسالة أخرى تختلف عن الرسالة الأصلية كل الاختلاف :

"المهم ذهابكم للمحجر - 17 - 11 - 4"

وكان استجلاء معنى هذه الأرقام سهلا كذلك... فالسبعة عشر تشير إلى السابع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) وكان اليوم التالي والاحد عشر هي ساعة الموعد، والأربعة هي التوقيع، وهي إما أن تكون رمزا إلى رقم 4 الغامض نفسه، وإما أن تكون الماركة المسجلة لـ "الأربعة العظام"... أما المحجر فواضح كذلك فإن على مسافة ثمان مائة متر من القصر محجرا كبيرا مهجورا، وهو أنسب مكان لعقد الاجتماعات السرية.

وفكرت لحظة في الانفراد بالعمل إذ كان يروقني أن أظهر بمظهر البطولة أمام "بوارو"، ولو مرة واحدة، ولكنني لم ألبث أن تغلبت على هذه الرغبة خشية أن أفسد هذه الفرصة السانحة للفوز والنجاح، وهكذا بادرت بالكتابة إليه... وبسطت له الحقائق التي وقفت عليها مستلفتا نظره إلى ضرورة وجودنا هناك لكي نطلع على ما يجري في ذلك الاجتماع... فإذا رأى أن أنفرد بالأمر فعلت، ولكنني وصفت له الطريق من المحطة إلى المحجر إذا أثر الحضور بنفسه...

وأخذت الرسالة إلى مكتب بريد القرية وأرسلتها بنفسني، وكنت أستطيع الاتصال بصديقي طوال مدة إقامتي عن طريق البريد، على ألا يرسل هو شيئا حذرا من أن يكون هناك من يعيث برسائلي ويطلع على محتوياتها... وفي المساء التالي كنت شديد الانفعال، ولم يكن عندنا أحد من الضيوف... وظللت طوال المساء مشغولا مع السيد "رايلاوند" بغرفة مكتبته... وقد كنت أتوقع مثل ذلك، فلم أعمل على لقاء "بوارو" بالمحطة، على أنني كنت شديد الثقة بأن السيد "رايلاوند" سيصرفني قبل الساعة الحادية عشرة بزم طويل... وقد صدق حدسي، فما حانت الساعة العاشرة والنصف حتى أعلن انتهاء عمله... انسحبت بهدوء، وتظاهرت بالصعود إلى الطابق الأعلى للنوم، ولكنني انسللت إلى الحديقة من سلم خلفي بعد

أن ارتديت معطفا قائما يخفي صدر قميصي الأبيض .

وتقدمت في الحديقة قليلا، ثم حانت مني لفتة إلى الورا فرأيت السيد "رايلاند" يهبط إلى الحديقة من شرفة مكتبته ... فعلمت أنه ذاهب إلى الموعد، وأسرعت في السير كي أسبقه، فبلغت الحجر لاهث الأنفاس، وبدا لي المكان مقفرا، فانسللت إلى ناحية تكسوها الاعشاب العالية الكثيفة المتشابكة واختبأت فيها في انتظار ما يجد من التطورات ... وبعد عشر دقائق، أي في تمام الساعة الحادية عشرة، أقبل "رايلاند" متمهلا وقد أسدل قبعته على عينيه، وسيجاره الأبدى في فمه، وبعد أنلقى على ما يحيط به نظرة سريعة غاص في فراغ الحجر، وسرعان ما تصاعدت إليّ همهمة أصوات، فأدركت أن الرجل أو الرجال الآخرين قد سبقوا إلى الموعد المضروب ... وزحفت من تحت الأغصان الكثيفة في حذر خطوة فخطوة، وأخذت أتسلل في الطريق المنحدر دون أن أحدث صوتا حتى لم يبق بيني وبين الرجال الذين يتحادثون إلا صخرة ضخمة ... وفي ستر من ذلك الظلام الدامس مددت عنقي من حافة هذه الصخرة، وإذا بي أرى نفسي أمام فوهة مسدس أسود فتاك ... وقال السيد "رايلاند" :

- ارفع يديك، إنني في انتظارك . وكان جالسا في ظل الصخرة فلم أكن أرى وجهه، لكن رنة التهديد في صوته كانت كريهة بغیضة ... ثم شعرت بمس الحديد البارد خلف عنقي ... وخفض "رايلاند" مسدسه قائلا :
- هذا حسن يا "جورج" ... أحضره هنا ...

وأخذت إلى بقعة مظلمة وأنا أكاد أتميز من الغیظ، وهناك أوثقني "جورج" الذي لم أكن أراه وكمنني، وأكبر ظني أنه لم يكن سوى التابع الخاص الملعون ... وعاد "رايلاند" إلى الكلام في صوت رهيب :

- ستكون هذه نهايتكما جميعا، فقد أسرفتما في اعتراض سبيل "الأربعة العظام"، وسيكون مصيركما هائلا يشيب النواصي ... لكن صديقك ليس دقيقا في حفظ المواعيد ...

طغت على فؤادي موجة من الهول والذعر عندما بدا لي أن "بوارو" يوشك أن يقع في الشرك المنصوب له وأنا عاجز عن تحذيره ولم أملك سوى الاتجاه إلى الله بالدعاء أن يكون قد عدل عن الحضور في آخر لحظة مكتفيا بي في هذه المهمة... وكلمتا مرت دقيقة ازداد بي الأمل والرجاء... لكن هذا الأمل ما لبث أن تحطم فجأة إذ سمعت وقع أقدام مقبلة في حيطه وحذر... وأخذت أتلوى ألما لعجزي... ثم أطل "بوارو" على الظلال وقد أمال رأسه قليلا، فسمعت همهمة الرضا والاعتباط من "رايلاند" وهو يرفع مسدسه هاتفا:

- ارفع يديك...! ووثب "ديفنز" إلى الخلف فقطع خط الرجعة على "بوارو"... وهكذا انطبق الفخ... وقال الأمريكي:
- يسرني لقاءك يا سيد "بوارو"... وأبدى "بوارو" ثباتا رائعا... وراح يجيل بصره فيما حوله قائلا:

- أين صديقي؟... أهو هنا؟
- أجل، إنكما في الشرك جميعا... شرك "الأربعة العظام". فتساءل "بوارو":
- شرك؟... ولكنك مخطئ يا سيدي، فأنت الذي وقعت في هذا الشرك لا أنا وصديقي... وهتف "رايلاند" وهو يرفع مسدسه:
- ماذا؟

- إذا أطلقت النار فإنك ترتكب جريمة قتل بمشهد من عشرين عينا ولن تنجو من المشنقة... إن هذا المكان يحاصره رجال "سكوتلانديارد" منذ ساعة، وهي الضربة الفاصلة يا سيد "أيب رايلاند"...

وصفر صفيرا عجيبا... ففج المكان بالرجال كأنما كان ذلك بسحر ساحر... واعتقلوا "رايلاند" وتابعه وجردوهما من سلاحيهما، ثم أخذ "بوارو" بذراعي وغادرنا المكان بعد أن تحدث إلى الضابط قليلا... وما كدنا نبتعد عن المحجر حتى عانقني "بوارو" عنقا حارا طويلا... وقلت:

- لقد أدركت حيلتهم الصغيرة؟

— إنني كنت أترقبها، وإلا فلماذا أرسلتك في هذه المهمة! وما خطر ببالي قط أن يخدعهم تنكرك واسمك المستعار. فتهتفت:

— ماذا تقول؟ إنك لم تنبئني بذلك...

— طالما قلت لك يا "هاستنجز" إن صفاء طبيعتك وشرف نفسك يجعلان من المحال أن تخدع غيرك إلا إذا كنت أنت مخدوعا... وهكذا كانوا يعرفون حقيقتك منذ اللحظة الأولى ففعلوا ما قدرت في نفسي أن يفعلوا، وأرادوا أن يتخذوك وسيلة إلى استدراجي، وكانت الفتاة من صنائعهم وعلى اتفاق معهم، فتلت عليك الرسالة، وكتبت لها أنت، وأرهقت نفسك في حل رموزها، وهي مدبرة بحيث لا يستعصى عليك حلها، ثم أرسلت إلي... لكن الذي كانوا يجهلونه هو أنني كنت أترقب حدوث ذلك، فأسرعت إلى المفتش "جواب" واتخذنا الترتيبات المناسبة، وانتهى الأمر بانتصارنا...

وعدنا إلى "لندن" بأحد قطارات الليل فبلغناها في الساعات الأولى من الصباح متعبين... ولم أكد أغادر الحمام ممنيا نفسي بفطور شهوي حتى سمعت صوت المفتش "جواب" في قاعة الجلوس فأسرعت إليها.. وكان "جواب" يقول:

— لقد قدتنا في مهمة وهمية هذه المرة يا سيد "بوارو"، وجعلتنا هدفا للهمزة والسخرية... فامتقع وجه "بوارو" امتقاعا شديدا ومضى "جواب" قائلا:

— حملنا تلك القصة عن الجمعية السرية المزعومة محمل الجد، وكان الأمر كله مزحة من الخادم. فتهتف مبهوتا:

— الخادم؟

— أجل... "جيمس"... وحقيقة الخبر أنه راهن زملاءه من الخدم على أنه يستطيع تقليد سيده تقليدا ينخدع به حتى سكرتيه، وهو أنت يا سيد "هاستنجز"، وأن يدخل عليك قصة ملفقة عن جمعية سرية موهومة تسمى عصابة "الأربعة العظام"... قلت:

— محال؟

— ألا تصدق؟ لقد أخذت السيد "جيمس" بنفسه إلى قصر "هاتون تشيز"،

وهناك كان السيد "رايلاند" الحقيقي في فراشه مستغرقا في النوم، وقد أقسم جميع الخدم أن الأمر كله كان مزاحا... فغمغم "بوارو" قائلا:

- لهذا كان يحرص على البقاء في ستر الظلال... ورحنا نتبادل النظرات بعد انصراف "جواب"، ثم قال "بوارو":

- إننا نعرف الآن يا "هاستنجز" أن رقم 2 من "الأربعة العظام" هو "أيب رايلاند"، أما المهزلة التي مثلها الخادم "جيمس" فكان المقصود بها هو ضمان سبيل التقهقر إذا طرأ ما ليس في حساباتهم... أما هذا الخادم فهو... قلت بشوق:

- من هو؟ فاجاب "بوارو" بجذ:

- رقم 4...

- 9 -

كان يطيب لـ "بوارو" أن يقول إننا نزداد على مر الأيام علما بتفكير أعدائنا وأساليبهم، ولكنني كنت أشعر بأننا نحتاج إلى فوز محسوس، فقد ارتكب "الأربعة العظام" منذ احتكاكنا بهم جريمتي قتل واختطفوا "هاليداي" وكادوا يفتكون بي وبصديقي، أما نحن فلم نحرز نقطة واحدة... واستخف "بوارو" بتذمري قائلا:

- إنهم يضحكون الآن يا "هاستنجز"، لكن عندكم معشر الإنجليز مثلاً يقول: "من يضحك أخيراً يضحك كثيراً". وسوف ترى لمن تكون العاقبة، ولا يغيب عنك أننا لا نناضل مجرماً عادياً بل العقلية الجبارة الثانية في العالم...

ولم أسأله من هو صاحب العقلية الأولى إذ كنت أعرف الجواب لعلمي بشغف صاحبي بالزهو والخيلاء... وعبثاً حاولت الوقوف على شيء مما يعده من الخطط لمهاجمة العدو، ولكنني استنتجت أنه على اتصال خفي ببعض رجال المخابرات السرية في "الهند" و"الصين" و"روسيا"، وكان قد تخلى عن جميع قضاياها، فأفاد صديقنا المفتش "جواب" من ذلك كثيراً، وإن كان نجاحه يعود في معظم الأحوال إلى

ملاحظة يلقي بها إليه "بوارو" بغير اكتراث... ولم يجحد "جانب" هذا الفضل فكان يبادر إلى إبلاغ "بوارو" بكل حادث يشتم منه أن له صلة قريبة أو بعيدة بقضية "الأربعة العظام"... وعندما عهد إليه بما دعتة الصحف "لغز الياسمين الأصفر" أ برق إلى "بوارو" يسأله هل يهمه الذهاب إليه والنظر في تلك القضية... وهكذا ألفينا أنفسنا بعد شهر من حادث "أيب رايلاند" في طريقنا إلى بلدة "ماركت هاندفورد" بمقاطعة "ورستر"، وهي المكان الذي وقع فيه الحادث. وسألني "بوارو" عن رأيي وهو ينثني في مقعده بالقطار فقلت:

- إنني أعتقد أن إسراعك على هذا النحو دليل واضح على أنك تعتقد أن موت السيد "باينتر" جريمة قتل وليس انتحارا ولا نتيجة حادث عارض.

- كلا... كلا، فلو سلمنا بأن السيد "باينتر" ذهب ضحية حادث مروع، فإن ثمة أمورا غامضة يعوزها الإيضاح، فلنستعرض الحقائق الأساسية بهدوء وانتظام. قلت:

- لنبدأ بالسيد "باينتر"، إنه شيخ ثري مثقف في الخامسة والخمسين، وهو مولع بالسفر والطواف بالافطار، لم يمكث خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية سوى فترات وجيزة في "إنجلترا"، ولكنه مل حياة السفر والتنقل فجأة، فابتاع بيتا صغيرا في "ماركت هاندفورد"، وعقد عزمه على الإقامة والاستقرار، وكان أول ما فعله أن استقدم "جيرالد باينتر" ابن أخيه الأصغر، واقترح عليه الإقامة معه بقصر "كروفتلاندز" كما يسمى البيت الذي ابتاعه، وكان "جيرالد باينتر" فنانا سيئ الحال فتقبل اقتراح عمه بغبطة وسرور، وكان يعيش مع عمه منذ نحو سبعة أشهر عندما حدثت المأساة. فغمغم "بوارو":

- إن طريقتك في السرد والتحليل رائعة، وإنني لأقول لنفسني: «هذا كتاب يتكلم وليس صديقي "هاستنجز"». ومضيت في حديثي دون أن ألقى إليه بالا:

- وكان للسيد "باينتر" بطاقة معتدلة، ستة خدم فضلا على خادمه الصيني الخاص "آه لينج". وغمغم "بوارو" مرددا قولي:

— خادمه الصيني "آه لينج".

— وفي يوم الثلاثاء الماضي شكى السيد "باينتير" وعكة بعد العشاء وأرسل أحد الخدم في طلب الطبيب، واستقبل السيد "باينتير" الطبيب بغرفة المكتبة إذ أبى أن يأوي إلى فراشه ولم يعرف أحد ماذا دار بين الرجلين، لكن الدكتور "كوينتين" طلب مدبرة المنزل قبل مغادرة البيت وأخبرها بأنه أعطى السيد حقنة تحت الجلد؛ لأن قلبه في حالة سيئة جداً، وأوصى ألا يزعجه أحد، ثم تطرق إلى إلقاء أسئلة غريبة عن الخدم ومتى التحقوا بخدمة القصر ومن قبل من جاءوا وما إلى ذلك، وأجابت مدبرة المنزل عن هذه الأسئلة بخير ما استطاعت، ولكنها كانت في أشد العجب مما عسى أن تكون الغاية منها.

وفي الصباح التالي اكتشف أمر هائل رهيب، فقد كانت إحدى الخادومات تهبط السلم وإذا بها تشم رائحة لحم يحترق آتية من مكتبة سيدها، فحاولت فتح الباب، ولكنه كان موصداً من الداخل، وتعاونت مع الخادم الصيني على فتحه عنوة، فطالعهما مشهد مروع فظيع، إذ كان السيد "باينتير" مكباً بصدرة على موقد الغاز، وقد احترق وجهه ورأسه حتى محيت معالمهما ولم يظن أحد من أهل القصر حينذاك أن الأمر حادث فظيع أليم، وإذا كان ثمة من يستحق اللوم فهو الطبيب الذي أعطى المريض مخدراً وتركه في ذلك الوضع الخطر، ثم اكتشف أمر عجيب، فقد وجدت على الأرض صحيفة خطت عليها كلمات بالمداد، وكان على مقربة من مقعد السيد "باينتير" مكتب صغير، كما كانت سبابة يد الميت اليمنى ملوثة بالمداد حتى المفصل الثاني، وكان التفسير الواضح لذلك أن السيد "باينتير" أعجزه الضعف عن استعمال القلم، فغمس أصبعه في الحبرة، وخط تينك الكلمتين على الصحيفة التي كانت أمامه، لكن الكلمتين كانتا خاليتين من كل معنى، كانتا "الياسمين الأصفر"!

وفي قصر "كروفتلاندز" كثير من أشجار الياسمين الأصفر التي تكسو الأسوار، فظن أن لهذه العبارة الصادرة عن رجل يحتضر علاقة بها، وأنها تدل على أن الرجل

المسكين كان يهذي، بيد أن الصحف التي تترقب كل ما تشتم منه رائحة الغرابة والشذوذ ما لبثت أن تلقفت القصة ودعتها "لغز الياسمين الأصفر" ولو أن الكلمات فيما أرجح لا قيمة لها إطلاقاً. قال "بوارو":

- لا قيمة لها؟ لا ريب في أنها كذلك ما دام هذا رأيك فيها. فحدجته بطرفي ولكنني لم أر في عينيه ما يشف عن السخرية والاستهزاء فقلت:

- عند ذلك جاءت مفاجآت التحقيق، فقد كان هناك شيء من شعور الاستياء ضد الدكتور "كوينتين"، ولا سيما أنه لم يكن طبيب البلدة بل كان ينوب عن طبيبها الدكتور "بوليدو" الذي قام بإجازة لمدة شهر ليستريح من أعماله الشاقة المرهقة، ثم إن الناس كانوا يرون أن إهماله هو السبب المباشر للحادث، لكن شهادته أمام لجنة التحقيق أحدثت ما يشبه ضجة، فقد كان السيد "باينتر" منحرف الصحة منذ وصول الطبيب إلى البلدة، وكان الدكتور "بوليدو" يتولى العناية به قبل قيامه بالإجازة، فلما عاده الدكتور "كوينتين" لأول مرة راعته بعض الأعراض، وكان قد عاده مرة واحدة قبل الليلة التي استدعى فيها لعيادته بعد العشاء، وما إن اختلى بالسيد "باينتر" حتى كاشفه بقصة غريبة، وأول ما يجدر بنا ذكره هو أن السيد "باينتر" لم يكن يشعر بأي توعك في ذلك المساء، لكن طعم نوع من أنواع الصلصة الهندية رابه في أثناء العشاء، فانتحل سبباً لإبعاد خادمه الصيني بضع دقائق، ثم أفرغ محتويات طبقه في إناء قدمه إلى الطبيب كي يرى هل فيه مادة غريبة... وعلى الرغم من قوله إنه لا يشعر بأي تعب، فقد رأى الطبيب أن هذه الشبهة أثرت في نفسه تأثيراً سيئاً أحدثت بقلبه ضعفاً، فحقنه بمخدر بل بالاستركنين... هذه هي القضية كلها سوى الختام... فإن الصلصة التي لم يأكلها السيد "باينتر" عند تحليلها ظهر أنها تحتوي من مسحوق الأفيون على ما يكفي لقتل رجلين. وكففت عن الكلام فسألني "بوارو":

- وما الذي تستنتجه يا "هاستنجز"؟

- من العسير أن يقطع المرء برأي... فقد يمكن أن يكون حادثاً... وأن تكون

محاولة تسميم السيد "باينتر" في الليلة نفسها مجرد مصادفة.

- ولكنك لا تعتقد ذلك؟ إنك تؤثر أن تعتقد أنها جريمة قتل؟

- ليس هذا رأيك أيضاً؟

- إننا نختلف في طريقة التفكير يا صديقي... فما أحاول القطع بأحد الرأيين... القتل أو الحادث العارض، فإن هذا سيتضح لنا إذا ما فرغنا من جلاء المشكلة الأخرى "لغز الياسمين الأصفر"، وبهذه المناسبة ألم تغفل شيئاً من التفاصيل؟

- أتعني ذينك الخططين المتقاطعين الذين وجدا تحت هذه الكلمات؟ إنني لم أر فيهما شيئاً من الأهمية.

- إن ما تراه هو المهم عندك دائماً يا "هاستنجز"... لكن دعنا ننتقل من "لغز الياسمين الأصفر" إلى لغز "الصلصة الهندية".

- أجل... فمن الذي دس فيها السم؟ ولماذا؟ لقد كان "آه لينج" هو الذي أعد تلك الصلصة، لكن ما الذي يحمله على محاولة قتل سيده؟ أهو عضو في إحدى الهيئات الصينية السرية؟ إن المرء ليقراً عن مثل هذه الأمور العجيبة، وقد يكون اسم الهيئة التي ينتمي إليها "جمعية الياسمين الأصفر"... وهناك أيضاً "جيرالد باينتر"... ووقفت عن الكلام، فقال "بوارو" يستحطني:

- أجل هناك "جيرالد باينتر" كما تقول، وقد تناول العشاء في تلك الليلة خارج القصر، ثم إنه وارث عمه. قلت:

- لعله استطاع العبث ببعض المواد التي أعدت منها الصلصة، فعمل على الابتعاد عن القصر حتى لا يشارك عمه في تناولها. ويبدو لي أن تفكيري راق "بوارو" فاقبل على الاستماع إليّ باحترام لم آلفه منه، فمضيت أفترض ما يمكن أن يكون قد حدث وقلت:

- وإنه ليعود إلى القصر متأخراً فيرى النور في مكتبة عمه، ويدخل، ويجد أن خطته قد فشلت، فيدفع الشيخ إلى نار المدفأة.

– لكن السيد "باينتر" كان على شيء من قوة البنية يا "هاستنجز" وما كان ليترك نفسه يموت حرقاً دون أن يبدي مقاومة... إن مثل هذا التصوير غير عملي. فهتفت قائلاً:

– لقد أوشكنا على الوصول يا "بوارو" فأخبرني برأيك أنت. ورماني "بوارو" بابتسامة وهو يبسط صدره، وقال بعظمة:

– لو فرضنا أن هناك جريمة قتل لقام أمامنا فوراً هذا السؤال: "لماذا اختار القاتل هذه الطريقة الغريبة لتنفيذ جريمته؟" أنا لا أستطيع أن أجده لذلك جواباً سوى أنه أراد محو ما يدل على شخصية القتيل إذ احترق الوجه احترقاً تاماً. – ماذا؟ أتظن...

– على رسلك يا "هاستنجز"، لقد فكرت في هذا الفرض، هل هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الجثة ليست جثة السيد "باينتر"؟ هل هناك شخص آخر يمكن أن تكون هذه جثته؟ إنني ترويت في هذين السؤالين جميعاً فكان الجواب بالنفي. فقلت وقد خاب ظني:

– أوه! وبعد ذلك؟

– بعد ذلك قلت لنفسى: «ما دامت أمامي مسألة تعمي فهمي فينبغي أن أتولى بحثها، وغير خليك بي أن أقف على "الأربعة العظام" كل جهدي واهتمامي... آه... قد وصلنا! وقال "بوارو" مفكراً ونحن نتأهب لمغادرة القطار:

– أجل... يجب ألا يكون المرء أسير فكرة واحدة، وقد كنت في خطر الوقوع في هذا الخطأ الشنيع. هل تصدق يا صديقي أنني أشفق على نفسي من هذا الخطأ؟ حتى هنا... في هذه القضية؟ ما عسى أن يكون هذان الخطان المتقاطعان اللذان ذكرتهما في تلخيصك سوى بداية رقم 4 فهتفت ضاحكاً:

– يالله يا "بوارو".

– أليس هذا سخيفاً! إنني لا توهم يد "الأربعة العظام" في كل مكان. آه! إن صديقنا "جواب" جاء لاستقبالنا. كان "جواب" مفتش "سكوتلانديارد" في

انتظارنا ومعه إحدى سيارات البوليس. وراح "بوارو" يستطلع رأيه في الحادث في أثناء الطريق، فقال المفتش بحيرة وارتباك:

— لولا وجود مسحوق الأفيون بالصلصة لما ترددت لحظة واحدة في القطع بأن الموت نتيجة حادث عارض. فإن وضع رأس رجل حي في النار عمل لا يجوز في عقل أحد، فقد كان الرجل خليقا بأن يملأ البيت ضجة وصياحا.

وبلغنا القصر، وهو بناء أبيض مربع بسيط المظهر، تغشى واجهته الأشجار المتسلقة، وخاصة أشجار الياسمين الأصفر بزهورها المتناثرة، وأخذنا "جواب" إلى المكتبة وهي التي وقعت بها المأساة وكانت غرفة فسيحة منخفضة، ونظر "بوارو" فوراً إلى باب يفتح على شرفة مرصوفة بالحصباء، وقال:

— ألم يكن هذا الباب موصداً؟ أجاب المفتش:

— هذه هي النقطة الغامضة في الموضوع كله. فإن الطبيب عند انصرافه لم يزد على إغلاق الباب وراءه ولكنه وجده في الصباح مقفلاً بالمفتاح، فمن الذي أقفله؟ ويؤكد "آه لينج" أن باب الشرفة كان موصداً بالمزلاج، بيد أن الدكتور "كوينتين" يظن أنه كان مقفلاً بغير المفتاح، وإن كان لا يجزم بذلك، ولو استطاع أن يتذكر ذلك بصفة قاطعة لتغير وجه المسألة تماماً. فإن السيد "باينتور" إذا كان قد قتل فلا شك في أن يكون القاتل قد دخل الغرفة من بابها أو من باب الشرفة. فإذا كان قد جاء من الباب فهو من أهل البيت، أما إذا كان قد دخل الغرفة من باب الشرفة فيمكن أن يكون منهم أو من غيرهم، وتعتقد الخادمة التي فتحت عند تحطيم باب الغرفة والعتور على الجثة أنه لم يكن موصداً، ولكنها شاهدة لا يعول على أقوالها؛ لسذاجتها واستسلامها للوهم والخيال. قال "بوارو":

— ومفتاح باب الغرفة؟

— كان ملقى على الأرض بين حطام الباب، ومن الممكن أن يكون قد سقط من الثقب أو ألقيه هناك أحد من الذين دخلوا الغرفة، كما يمكن أن يكون قد أدخل من تحت الباب من الخارج. وراح "بوارو" يتلفت حوله متجهماً وهو يغمغم:

- إنني لا أرى نورا، فليس لديّ أهم دليل أهتدي به وهو باعث الجريمة. فقال "جواب":

- إن لدى الشاب "جيرالد باينتر" باعشا قويًا، فقد كان سيئ السير متلافا، وأنت أدري بأخلاق أهل الفنون. وابتسم "بوارو" قائلا:

- أذدر الرماد في عيني يا عزيزي "جواب"؟ إنني لعلّ ثقة بأنك تحصر شبهتك في الخادم الصيني، ولكنك شديد المكر والدهاء تريد أن أساعدك فتعتمد إلى اللف والدوران. فانفجر "جواب" في الضحك وقال:

- أنت لا تخفى عليك خافية يا "بوارو"، أجل، إنني أشك في الصيني، فالمعقول أنه هو الذي دس السم في الصلصة، وإذا كان قد حاول قتل سيده مرة فما كان ليحجم عن إعادة المحاولة، لكن الباعث هو الذي يعييني فهمه، وأكبر ظني أن الانتقام الذي اشتهر به الرثنيون أو شيء من هذا القبيل. قال "بوارو":

- إنني لفي حيرة من ذلك، ألم تقع أية سرقة؟ ألم يفقد شيء؟ مجوهرات أو نقود أي أوراق؟

- كلا... لم يقع شيء كهذا. وأرهفت سمعي كما فعل "بوارو"، واستطرد المفتش قائلا:

- أعني أنه لم يسرق شيء... لكن الشيخ كان مشتغلا بوضع كتاب لم نعلم عنه شيئا إلا في هذا الصباح عندما حمل البريد رسالة من الناشر يطلب موافاته بالاصول. ويظهر أن الشيخ كان قد فرغ من كتابته، وبحث أنا والشاب "باينتر" في كل مكان ولكننا لم نجد له أثرا. وومض في عيني "بوارو" ذلك اللهب الأخضر الذي كنت أعرفه جيدا وقال:

- وما كان اسم هذا الكتاب؟

- أظن أنه كان يسمى "اليد الخفية في الصين". فهتف "بوارو":

- آه! أريد أن أرى ذلك الخادم الصيني. وأقبل الصيني مطرقا إلى الأرض لا تنم أساريه الجامدة عن شيء مما يعمل في نفسه. وسأله "بوارو":

– أأنت حزين يا "آه لينج" على موت سيدك؟

– حزين جداً، فقد كان سيدا كريما.

– وهل تعرف قاتله؟

– لو عرفته لانبأت رجال البوليس. ودارت بينهما الاسئلة والاجوبة، فأصر الخادم على أنه أعد الصلصة بنفسه، ولم تمسها يد أحد سواه، وأن باب الشرفة كان موصدا بالمزلاج ليلة الحادث.

– اتقول إنك لا تعرف شيئا عن عبارة "الياسمين الاصفر"؟

– كلا، وماذا عساي أن أعرف؟

– ولا عن العلامة المكتوبة تحتها؟ وانحنى "بوارو" فجأة على منضدة صغيرة بجانبه وخط بأصبعه شيئا في الغبار الذي كان يعلوها، ورأيت ما خطه قبل أن يسرع بمحوه، وكان رقم 4، وكان لذلك أعجب التأثير في "آه لينج"، فقد ارتسمت على وجهه آيات الرعب والهلع، ولكنه سرعان ما استرد ثباته وجموده وأصر على الإنكار وغادر الغرفة، وخرج لإحضار الشاب "باينتر"، فخلوت أنا و"بوارو" إلى أنفسنا وصاح "بوارو":

– "الأربعة العظام" يا "هاستنجز"، "الأربعة العظام" مرة أخرى، فقد كان "باينتر" رحالة عظيما، ولا ريب في أن كتابه كان يتضمن معلومات عن رقم 1، "لي تشافنج ين"، الرأس المدبر والعقل المفكر لـ "الأربعة العظام".

وأردت أن أستزيد من الإيضاح، لكن "جاب" أقبل مع الشاب "باينتر" فقطعنا الحديث، وكان "جيرالد باينتر" شاباً وديعا يدل مظهره على الدمائية واللين، وأخذ يجيب عن أسئلة "بوارو" في سرعة وطلاقة فقال:

– تناولت العشاء عند بعض جيراننا وهم آل "وتشرليس" وعدت في الساعة الحادية عشرة، وكان جميع الخدم قد ناموا، وظننت أن عمي نام كذلك، وأظن أنني لمحت ذلك الخادم الصيني "آه لينج" يدور حول ركن الردهة ولكنني أعتقد أنني كنت واهما في ذلك.

- ومتى رأيت السيد "باينتر" آخر مرة قبل أن تحضر للإقامة معه؟
- منذ كنت غلاما في العاشرة، فقد شجر شقاق بينه وبين أبي كما تعلم.
- ولكنه لم يجد صعوبة في الاهتداء إليك على الرغم مما مضى من السنين؟
- لقد كان من حسن الحظ أنني رأيت الإعلان الذي نشره محاميه.
- وكانت خطواتنا التالية زيارة الدكتور "كوينتين"، فكانت قصته مطابقة تماما لما أدلى به أمام مجلس التحقيق وقال:
- إنني لأعتقد اعتقادا جازما أن الصيني هو الذي دس مسحوق الأفيون في الصلصة، أما إلقاء الشيخ في النار فعمل لا يتفق مع خلق هذا الخادم، أما باعث الجريمة فلا أستطيع فهمه. وذهب المفتش "جواب" إلى مركز البوليس لشأن من الشؤون فقلت لـ "بوارو" معقبا على قول الطبيب ونحن نجتاز الشارع الرئيسي بالبلدة:
- أعتقد أن الصيني أدخل البيت حليفا له؟ وبهذه المناسبة أرى أن بوسعنا الاعتماد على المفتش "جواب" في مراقبته فإن أعوان "الأربعة العظام" أسرع في الاختفاء من خيل السباق.
- إن "جواب" يراقب الرجلين رقابة صارمة منذ اكتشاف الجثة.
- نحن نعلم على كل حال أن "جيرالد باينتر" لا يد له في الجريمة.
- إنك لتعلم دائما أكثر مما أعلم يا "هاستنجز" افضحك قائلا:
- إنك لا تفضي بقول واضح أيها الثعلب الماكر.
- لا تكلمني... حتى أطمئن وأعرف أن كل شيء على ما يرام أمامي، فيما عدا عبارة "الياسمين الأصفر" وقد بدأت أتفق معك في أنها لا شأن لها بالجريمة، وفي مثل هذه القضية يجب أن تقطع برأي فيمن هو الكاذب من أشخاصها وقد فعلت ذلك، ومع هذا...
- ثم انطلق من جانبي كما ينطلق السهم واندفع فجأة إلى مكتبة قريبة، وعاد بعد دقائق قلائل يتباطئ ربطة، ولحق بنا "جواب"، فذهبنا جميعا إلى الفندق.
- واستيقظت من النوم متاخرا في صباح اليوم التالي، فلما نزلت إلى قاعة الجلوس

المحجوزة لنا رايت "بوارو" قد سبقني إليها وهو يذرعها جيئة وذهابا وعلى وجهه آيات الألم والعناء وصاح وهو يشير إليّ بيد مضطربة:

- لا أكتملك يا "هاستنجز" أن المسألة أصبحت واضحة أشد الوضوح وأن الاعتقال قد تم، آه... لكن تحليلي السيכולوجي كان ضعيفا. إن المرة لا يكتب رسالة وهو في النزاع الأخير إلا إذا كانت مهمة جدًّا، ومع ذلك فقد كانوا يقولون جميعا "الياسمين الأصفر؟ إنها عبارة لا معنى لها" لكن اسمع ما تعنيه هذه العبارة. ورفع كتاباً صغيراً كان في يده وهو يقول:

- لقد بدا لي أنني أحسن صنعا ببحث الموضوع بحثا دقيقا، فما حقيقة الياسمين الأصفر؟ إن هذا الكتاب الصغير قد أوقفني على كل شيء، فأعزني سمعك. وراح يقرأ:

- "جلسيميني راديكس". الياسمين الأصفر تركيبه: القلوبات وهي الـ"جلسيميني"، وهو سم قوي المفعول يشبه الـ"كونيني"، و"راديكس"، ومفعوله كمفعول الاستركنين، وحامض "جلسيميك" وغيره، ومجموع هذه العناصر يحدث ضيقا شديدا بالجهاز العصبي المركزي، وفي أواخر مراحل مفعوله يشل أطراف الأعصاب المحركة، وإذا أعطي بجرعات كبيرة أحدث غثيانا وفقدنا للقوة العضلية، ويحدث الموت نتيجة لشل المركز التنفسي. ثم أردف "بوارو" قائلا:

- أرايت يا "هاستنجز"؟ لقد لحت ومضة من الحقيقة عندما لاحظ "جاب" تعذر إلقاء رجل حي في نار الموقد، وأدركت أن "باينتر" حرق بعد موته.

- لكن لماذا؟ ما الذي يرمي إليه القاتل من وراء ذلك؟

- إذا أردت يا صديقي أن تطلق الرصاص على رجل بعد موته أو تطعنه أو تضربه على الرأس، فإنه يكون من الواضح أن الإصابات حدثت بعد الوفاة. أما إذا احترق رأسه حتى صار كتلة سوداء فلن يحاول أحد البحث عن أسباب غامضة للموت، والرجل الذي نجا من السم في العشاء لا يعقل أن يقتل بالسم عقب نجاحه مباشرة، والسؤال هو: من الكاذب من المتصلين بهذا الحادث؟ فهتفت مبهوتا:

— ماذا!

— أيد هتشك هذا يا "هاستنجنز"؟ إن "آه لينج" كان على علم بوجود "الأربعة العظام"، وكان هذا واضحاً جداً إلى درجة أنه لم يخطر بباله أن لهم شأنًا في الجريمة حتى نبهته أنا إلى ذلك، ولو كان هو القاتل لما بدا عليه ذلك الشحوب ولا استطاع الاحتفاظ بثبات جنانه ورباطة جأشيه، وهكذا عولت على تصديق "آه لينج"، وركزت شكوكي حول "جيرالد باينتير"، وبدا لي أنه من السهل على رقم 4 أن ينتحل شخصية ابن أخ اختفى عن عمه منذ زمن بعيد. وصحت بذهول:

— ماذا! رقم 4؟

— كلا يا "هاستنجنز"، إن "جيرالد باينتير" ليس رقم 4 فما كدت أقرأ هذا الكتاب عن الياسمين الأصفر حتى تجملت لي الحقيقة، والآن... من هو الذي كانت أمامه الفرصة سانحة للعبث بالصلصة؟

— "آه لينج"... ولا أحد سواه.

— ولا أحد سواه؟ وما رأيك في الطبيب؟

— لكن الطبيب لم يكن هناك إلا بعد العشاء.

— أجل بعد العشاء لم يكن بالصلصة التي قدمت على المائدة شيء من مسحوق الأفيون، لكن الشيخ كان تحت تأثير الشبهات التي أثارها بنفسه الطبيب في زيارته الأولى فلم يذقها، بل احتفظ بها ليفحصها الطبيب، وأرسل في استدعائه فوراً طبقاً لما كان متفقاً عليه بينهما، ويصل الطبيب فيأخذ الصلصة لإرسالها للتحليل، ثم يعطي السيد "باينتير" حقنة يزعم أنها من الاستركتين، ولكنها تحوي في الحقيقة جرعة قاتلة من الياسمين الأصفر... وإذا ما بدأ العقار يفعل فعله غادر البيت بعد رفع مزلاج باب الشرفة ثم يعود في الليل من هذا الباب، ويعثر على أصول الكتاب الذي وضعه الشيخ، ويلقي بجثة القتيل في الموقد، وقد علم "باينتير" وهو يحتضر حقيقة المادة التي حقن بها، وحاول اتهام "الأربعة العظام" بقتله، وكان من السهل أن يمزج الدكتور "كوينتين" الصلصة بمسحوق الأفيون قبل

إرسالها للتحليل، وهو يفضي بحديثه مع "باينتر" على الوجه الذي يروقه، ويذكر حقنة الاستركنين عرضاً حذراً من العثور على أثر الإبرة بذراع القتيل، وهكذا توزعت الشبهات بين أن يكون الموت نتيجة حادث عارض وبين اتهام "آه لينج" بقتل سيده بسبب وجود الأفيون في الصلصة.

- لكن لا يمكن أن يكون الدكتور "كوينتين" رقم 4.

- بل أعتقد أنه يمكن أن يكون هو، ولا ريب في أن هناك طبيباً حقيقياً باسم الدكتور "كوينتين" لعله الآن في الخارج بعيداً عن "إنجلترا"، فانتحل رقم 4 شخصيته لفترة وجيزة، وقد تم الاتفاق بينه وبين الدكتور "بوليدو" طبيب هذه البلدة عن طريق المراسلة: إذ أصيب الطبيب الذي كان مقرراً أن يحل محله بمرض مفاجئ. وهنا اندفع إلى القاعة المفتش "جواب" محتقن الوجه فصاح "بوارو" بقلق: - هل قبضتم عليه؟ فهز "جواب" رأسه قائلاً:

- لقد عاد الدكتور "بوليدو" من إجازته هذا الصباح بناء على برقية لا نعرف من أرسلها إليه، أما الطبيب الآخر فقد رحل في الليلة الماضية، ولكننا سنظفر به. قال "بوارو" وهو يرسم بملعقته على المائدة رقم 4: - لا أظن.

- 10 -

تعودت و"بوارو" أحياناً أن نتناول العشاء بمطعم صغير في "سوهو"، وحدث أن صادفنا هناك ذات مساء المفتش "جواب" فقال له "بوارو" معاتباً: - إنك لا تحضر لزيارتنا في هذه الأيام، ولم نرك منذ "لغز الياسمين الأصفر" وقد مضى على ذلك ما يقرب من شهر.

- لقد كنت في الشمال، ألا يزال "الأربعة العظام" على ما يرام؟ فهز "بوارو" أصبعه محتجاً وقال:

- آه! إنك تهزأ بي لكن "الأربعة العظام" موجودون حقاً.

- لا أشك في ذلك، ولكنهم ليسوا من الخطورة بحيث تعتقد.
- أنت مخطئ أشد الخطأ يا صديقي، إن أعظم قوى الجريمة والشر في العالم اليوم هم "الأربعة العظام".
- فلندع هذا الموضوع الذي يهيم بك في أودية الخيال يا سيد "بوارو"، هل تعرف لعبة الشطرنج؟
- أجل، وقد لعبتها أحيانا.
- هل سمعت بالحادث العجيب الذي وقع أمس؟ كانت هناك مباراة بين لاعبين من الشهرة العالمية بمكان، فمات أحدهما في أثناء اللعب.
- لقد قرأت شيئا عن ذلك وكان الدكتور "سافارونوف" البطل الروسي أحد اللاعبين، أما الآخر الذي مات بسكتة قلبية فهو الشاب الأمريكي النابه "جلمور ولسون"، إنه لحادث عجيب، وإذا لم تخطئ فراستي فإنك مهتم به اهتماما خاصاً.
- فضحك "جواب" ضحكة مضطربة وقال:
- أصبت يا "بوارو"، إنني في أشد الحيرة والارتباك، فقد كان "ولسون" سليما قوياً ليس بقلبه شائبة من ضعف أو إخلال، حتى ليبدو موته الفجائي لغزا معقداً.
- أتشتبه في أن يكون الدكتور "سافارونوف" قد أزاله من طريقه؟
- ما رأيك إذن؟ ما الباعث على تسميم "ولسون"؟ إنني لا أظن أنك تشتبه في أنه مات بالسم.
- بالتأكيد لقد قرر الطبيب رسمياً أنه مات بالسكتة القلبية، ولكنه أوما إلينا بأنه غير مقتنع بصحة هذا التشخيص.
- ومتى يقومون بتشريح الجثة؟
- الليلة، وسيساعدنا التشريح كثيراً، ولكنني لا أكاد أرى سببا يحمل أحدا من الناس على قتله فقد كان شاباً وديعاً رضي الأخلاق جاء إلى هنا تواً من "الولايات المتحدة"، ولم يكن في العالم كله من يضمر له العداء بحسب ما يظهر لنا. قلت:
- يظهر أن فكرة قتله مستحيلة. فقال "بوارو" مبتسماً:

- كلا، لكن لدى "جانب" رأيا خاصاً بلا ريب.
- أجل يا سيد "بوارو"، إنني لا أعتقد أن "ولسون" كان المقصود بالسم، بل المقصود هو الرجل الآخر.
- الدكتور "سافارونوف"؟
- نعم، اختلف "سافارونوف" مع البلاشفة في أول الثورة حتى أعلن أنه قتل، ولكنه كان في الحقيقة قد استطاع الفرار وظل ثلاث سنين يعاني من المشاق ما يشيب ناصية الطفل في قفار "سيبيريا"، وكان لتلك المشاق والآلام عليه من التأثير أشده حتى لقد أعلن أصدقائه ومعارفه أنهم لم يكادوا يعرفونه، لقد اشتعل رأسه شيبا، وغدا كالشيخ الذي أوهنه الكبر واستنزف قوته، وهو شبه مقعد وقلما يغادر بيته، كما أنه مقيم بمفرده مع ابنة أخت له تدعى "سونيا دافيلوف" وخادم روسي في طريق "وستمنستر"، ولعله يعتقد أنه لا يزال هدفا لاعتداء البلاشفة، وكان راغبا أشد الرغبة عن الاشتراك في مباراة الشطرنج هذه، ولقد رفض الاشتراك في مثلها مرارا من قبل رفضا باتاً حتى لقد تناولته الصحف بالنقد والتجريح وتحداه "جلدمور ولسون" فيما اشتهر به أبناء العم "سام" من الإصرار والعناد، وأخيرا اضطر الروسي إلى قبول التحدي. فلماذا كان يصبر على الإباء والامتناع؟ أما رأيي فهو أن الرجل كان يريد تحاشي الظهور ولفت الأنظار إليه حتى لا يقتفي خصومه أثره.
- أليس هناك أحد يمكن أن يفيد من موت "سافارونوف"؟
- أظن أن ابنة أخته تفيد من ذلك، فقد ورث منذ عهد قريب ثروة طائلة تركتها له السيدة "جوسبوجا" التي كان زوجها من محتكري السكر في العهد القيصري، وكانت لهما فيما مضى مسألة غرامية، وقد أثبت أن تصدق بموته عندما أعلن البلاشفة ذلك.
- وأين عقدت المباراة؟
- في شقة "سافارونوف" إذ إنه مقعد لا يستطيع الحراك كما أخبرتك.
- وهل كان هناك كثير من المشاهدين؟

– لا أقل من اثني عشر شخصا. فقال "بوارو" :

– إن مهمتك ليست باليسيرة يا عزيزي "جواب".

– لو تأكدت من أن "ولسون" قتل بالسم لاستطعت البدء في العمل.

– ألم يخطر لك أن القاتل قد يقدم على محاولة أخرى إذا صح فرضك بأن "سافارونوف" هو الهدف؟

– خطر لي هذا بالتأكيد، وهناك رجلان من رجالي يراقبان مسكن "سافارونوف". فقال "بوارو" بجفاء:

– سيكون هذا الاحتياط جليل الفائدة إذا ذهب إلى المسكن رجل يحمل قنبلة تحت إبطه.

– أرى أنك بدأت تهتم بالحادث يا سيد "بوارو"، فهل تحب أن تأتي إلى معرض الجثث لمشاهدة جثة "ولسون" قبل أن يبدأ الأطباء في تشريحها؟ فقد يكون دبوس ربطة عنقه منحرفا عن موضعه فيوحي هذا إليك بفكرة تحل طلاسما هذا اللغز.

– أجل هيا بنا إلى معرض الجثث. ورأيت من اهتمام "بوارو" بهذا الحادث ما أثلج صدري، فقد صرفه "الأربعة العظام" عن كل شيء منذ زمن بعيد، ولقد حز في نفسي منظر ذلك الشاب الأمريكي المنكود الذي لقي منيته على هذا النحو الأليم، أما "بوارو" فراح يفحص الجثة بعناية واهتمام، ولم يكن بها أية علامة سوى أثر جرح صغير باليد اليمنى، وقال "جواب" :

– لقد قال الطبيب إن هذا حرق وليس جرحا. وحول "بوارو" التفاته إلى محتويات جيوب الميت التي بسطها أحد المعاونين أمامه لفحصها، ولم تكن سوى مندبل ومفاتيح ومحفظة مليئة بأوراق النقد وبضع رسائل لا أهمية لها، ولكن شيئا واحدا أثار اهتمام "بوارو" فهتف قائلاً:

– قطعة شطرنج! إنه فرس أبيض، كانت هذه في جيبه؟ أجاب "جواب" :

– كلا، بل كان قابضا عليها بيده، وقد خلصناها من بين أصابعه بصعوبة، وينبغي إعادتها إلى الدكتور "سافارونوف"، فإنها قطعة من شطرنج بديع جداً

مخروط من العاج.

- اسمح لي بأخذها إليه فإنها ستكون حجة لي في زيارته. فهتف "جواب":

- آه! أتريد الاشتراك في هذه القضية؟

- اعترف بذلك، فقد كنت بارعا حقاً في إثارة اهتمامي. وانثنى "بوارو" إلى

الجثة قائلاً:

- أليست لديك تفاصيل أخرى تستطيع الإدلاء بها إليّ.

- لا أظن ذلك.

- ولا أن الميت كان أعسر؟

- إنك لساحر يا "بوارو"، كيف عرفت ذلك؟ لقد كان يستعمل يده الشمال

حقاً، وإن كان هذا لا صلة له بالحادث. فبادر "بوارو" قائلاً:

- ليس له به أية صلة وإنما أردت المزاح معك. وفي صباح اليوم التالي كنا في

طريقنا إلى شقة الدكتور "سافارونوف" في "وستمنستر" قلت:

- "سونيا دافيلوف"... إنه لاسم جميل. فرشني "بوارو" بنظرة شزاء وقال:

- إنك من أهل الهوى والخيال ولا أمل في إصلاحك! إنك لتستحق أن يتضح لنا

أن "سونيا دافيلوف" ليست إلا صديقتنا وعدوتنا الكونتيسة "فيرو روساكوف".

وما إن طرق هذا الاسم البغيض سمعي حتى اعترتني الكآبة وقلت:

- لا ريب في أنك لا تشبه يا "بوارو"...

- كلا... كلا... إنما أردت مداعبتك، إن "الأربعة العظام" لا يملكون على

تفكيرتي إلى هذا الحد مهما يقل صديقنا "جواب". وفتح لنا باب المسكن خادم

جامد الأسارير إلى درجة تشير العجب، فابرز "بوارو" بطاقة خط عليها المفتش

"جواب" بضع كلمات لتقديمه والتعريف بشخصه، فأدخلنا إلى قاعة منخفضة

مستطيلة حافلة بفاخر الأثاث والرياش وشمين التحف، وقد علقت على الجدران

بضع أيقونات عجيبة، وفرشت الأرض بالسجاد العجمي، وعلى منضدة جهاز

الشاي الروسي المعروف باسم "الساموفار". وأخذت أتفحص أيقونة بدا لي أنها

عظيمة القيمة، ثم التفت وإذا بي أرى "بوارو" مكباً على الأرض، ومع أن السجادة كانت جميلة حقاً، فإني لم أر فيها ما يستوجب كل هذا الاهتمام، وسألته:

– أعجوبة هي؟ أجاب:

– ماذا؟ السجادة، ولكنني لم أكن أتأمل السجادة، إنها جميلة حقاً، جميلة إلى درجة يستكثر معها أن يدق مسمار غليظ في وسطها. وتقدمت لأتأمل السجادة فأردف قائلاً:

– كلا يا "هاستنجز". إن المسمار ليس هناك الآن، لكن الثقب باق.

وفوجئنا بصوت من خلفنا فاستدرت مسرعاً وهب "بوارو" واقفاً، ورأينا عند الباب فتاة ترمقنا بعينين يغشاهما الشك والريب، وكانت معتدلة القامة، جميلة الطلعة، زرقاء العينين ذات شعر فاحم مقصوص، فلما تكلمت كان صوتها رخيماً شجياً. يدرك سامعه لأول وهلة أنها ليست إنجليزية. وقالت:

– أخشى ألا يستطيع خالي مقابلتكما فإنه مقعد لا يقوى على الحركة.
– هذا أمر يؤسف له، لكن لعلك تفضلين بمساعدتي بدلاً منه، إنك الآنسة "دافيلوف"؟

– أجل، أنا "سونيا دافيلوف". ما الذي تريد معرفته؟

– إني أقوم ببعض الأبحاث في الحادث المحزن الذي وقع أمس الأول... موت السيد "جلمور ولسون"، فما الذي تستطيعين أن تخبريني به عن هذا الحادث؟
فاتسعت حدقتا الفتاة وأجابت:

– إنه مات بالسكتة القلبية وهو يلعب الشطرنج.

– إن البوليس ليس واثقاً بأن الموت نتيجة السكتة القلبية يا آنسة. فأت الفتاة بحركة تشف عن الجزع وصاحت قائلة:

– لقد كان "إيفان" على حق إذن!

– من هو "إيفان"، ولماذا تقولين إنه كان على حق؟

– إن "إيفان" هو الذي فتح لكما الباب، وكان قد أخبرني بأنه يعتقد أن

"جلمور ولسون" لم يمت موتاً طبيعياً... بل سمم خطأ، وكان خالي هو المقصود بالسم.

نسيت الفتاة سالف تحفظها وشكها فاندفعت في الكلام دون روية ولا تفكير. وسألها "بوارو":

- ومن عساه يريد تسميم الدكتور "سافارونوف"؟ فهزت الفتاة رأسها قائلة:
- لا أدري. إنني في ظلام دامس وخالي يأبى أن يثق بي، وله العذر إذ إنه لا يكاد يعرفني، فلقد كان آخر عهده بي وأنا طفلة، ولم يرني بعد ذلك إلا عندما جئت للإقامة معه في "لندن"، ولكنني أعلم أنه في خوف من أمر ما؛ لأن في "روسيا" كثيراً من الجمعيات السرية، وقد سمعت ذات يوم ما حملني على الظن بأنه يخشى إحدى هذه الجمعيات. وتقدمت مني خطوة وهي تخفض صوتها قائلة:

- قل لي يا سيدي... هل سمعت بجمعية تسمى "الأربعة العظام"؟ فكاد "بوارو" يشب دهشة وعجبا وقال:

- لماذا؟ ما الذي تعرفينه عن "الأربعة العظام" يا آنسة؟

- إذن فهناك مثل هذه الهيئة... لقد سمعت عفوا إشارة إليهم فسألت خالي عن ذلك فيما بعد، ولم أر في حياتي مثل ما عراه من الرعب والهول... فقد شحب وجهه، وأخذته رعدة عنيفة، أجل يا سيدي، إنه لفي أشد الخوف منهم، وقد قتلوا ذلك الشاب الأمريكي خطأ... وغمغم "بوارو":

- "الأربعة العظام"... "الأربعة العظام" دائما... إن خالك لا يزال في خطر يا آنسة ويجب أن أنقذه، فاروي لنا حوادث تلك الليلة المشؤومة، وأريني رقعة الشطرنج والمنضدة وكيف كانا يجلسان... أريني كل شيء. قصدت الفتاة إلى جانب الغرفة وجاءت بطاولة صغيرة بديعة الصنع طُعم سطحها بالمرعبات الفضية والسوداء كي يكون رقعة شطرنج... وقالت:

- لقد أرسلت هذه المنضدة هدية إلى خالي منذ بضعة أسابيع، ورجاه مهديها أن يستعملها في مباراته التالية... وكانت موضوعة في وسط الغرفة، وهكذا...

وعكف "بوارو" على منضدة اللعب يفحصها بعناية لم أر لها معنى، وقد كان يسلك في بحثه سبيلا ما كنت لأطرقه لو أنني مكانه... فأكثر أسئلته كانت تلوح لي عديمة الجدوى، وهو لا يسأل شيئا عن أمور أراها على أكبر جانب من الأهمية واستنتجت من ذلك أن ذكر "الأربعة العظام" قد ذهب بآثرانه وحاد به عن القصد، وبعد أن فرغ من فحص المنضدة والمكان طلب أن يرى قطع الشطرنج، فجاءته بها "سونيا دافيلوف" في صندوق، وبعد أن فحص قطعة أو قطعتين منها فحصا سطحيًا غمغم وهوشارد اللب:

— إنها مجموعة بديعة. على أنه مع ذلك لم يسأل قط عما قدم إلى اللاعبين من المرطبات ولا عمن حضر المباراة من المشاهدين... وهممت بتهنئة إلى ذلك فزجرني في غلظة وقال:

— ألا يمكن بحال من الأحوال أن أرى خالك يا آنسة؟ فلاحت على وجه الفتاة ابتسامة خفيفة وأجابت:

— سيستقبلك يا سيدي... ولعلك ترى أنه من واجبي أن أرى الغرباء أولا... وغادرت الغرفة... ثم سمعت همهمة أصوات بالغرفة المجاورة، وبعد قليل عادت وطلبت إلينا أن نتبعها، ورأينا على أريكة بالغرفة المجاورة رجلا مهيب المنظر، فقد كان الدكتور "سافارونوف" مديد القامة، عريض المنكبين، غليظ الحاجبين، أبيض اللحية، وإن نال منه الشحوب والهزال، وترك ما قاساه من المشاق والجوع والحرمان على وجه آثارا لا تمحى... انحنى "بوارو" أمامه قائلاً:

— هل تسمح لي يا دكتور "سافارونوف" بأن أحادثك على انفراد؟ فالتفت "سافارونوف" إلى ابنة أخته قائلاً:

— اتركيها يا "سونيا". وبعد انصرافها انثنى إلى "بوارو" قائلاً:

— حسنا يا سيدي...

— لقد ورثت ثروة طائلة منذ عهد قريب يا دكتور "سافارونوف"، فمن الذي

يرثها إذا قضيت نحبك على غير انتظار؟

- إنني كتبت وصية أترك بها كل شيء لابنة أختي "سونيا دافيلوف" ... ولكنك لا تعني ...
- لست أعني شيئاً ... إنك لم ترابنة أختك منذ كانت طفلة صغيرة، فكان من السهل على أي شخص انتحال شخصيتها ... فبدت على "سافارونوف" علامات الدهشة والارتياح ومضى "بوارو" يقول:
- هذا حسبنا في هذا الشأن، فما أردت إلا مجرد تحذيرك ... والذي أريده الآن منك هو أن تصف لي سير لعبة الشطرنج في ذلك المساء.
- ماذا تعني بوصفها؟
- لست من هواة الشطرنج ولكنني أعرف أن هناك طرقاً شتى لافتتاح اللعب ... فابتسم الدكتور "سافارونوف" قليلاً وقال:
- آه ... لقد فهمت ما تعنيه. إن "ولسون" افتتح اللعب بطريقة "روي لوبيز" وهي طريقة معروفة شائعة ...
- كم كان قد مضى عليكما في اللعب عندما وقع الحادث؟
- لا شك في أنه كان حوالي الحركة الثالثة أو الرابعة عندما أكب "ولسون" بوجهه على المنضدة ميتاً. ونهض "بوارو" متهيئاً للانصراف، ثم ألقى بسؤاله الأخير في غير اكتراث كأنه سؤال تافه لا قيمة له، قال:
- هل تناول شيئاً من الطعام أو الشراب؟
- أظن أنه تناول شيئاً من الشراب. وكان "إيفان" في انتظارنا بالردهة لكي يشيعنا إلى الباب فتردد "بوارو" عند العتبة قليلاً وسأله:
- هل تعرف من الذي يقيم بالشقة التي تحتكم؟
- هو السير "تشارلز كنجويل" عضو البرلمان يا سيدي ... وقد استأجرها مفروشة منذ عهد قريب.
- أشكرك ... فلما خرجنا انطلقت أعبر عما يجيش به صدري وقلت:
- إنك لم توفق كعادتك في هذه المقابلة يا "بوارو"، فقد كانت أسئلتك كلها

خارجة عن الموضوع ...

- أعتقد ذلك يا "هاستنجز"؟ إنني كنت مضطرب الأعصاب حقًا، لكن كيف كنت تسألهم لو كنت مكاني؟ ففكرت في قوله مليًا ثم أوجزت في تفصيل خطتي وهو مصغ إليّ فيما يشبه العناية والاهتمام، ولم أفرغ من حديثي إلا عندما أشرفنا على مسكننا، فقال "بوارو" وهو يتقدمني على السلم:

- إنها لخطة بارعة دقيقة يا "هاستنجز" ولكنها غير ضرورية. فهتفت ذاهلا:

- غير ضرورية؟ إن الرجل إذا كان قد سمم ... وقال "بوارو" وهو يختطف رسالة موضوعة على المنضدة وينظر فيها:

- إنها من "جابه" ... والأمر كما توقعت. وكانت الرسالة موجزة واضحة، فلم يعثر على أي أثر للسم ... ولم يمكن تحديد سبب الوفاة ... وقال "بوارو":
- هانتذا ترى أن أسلطنا لم يكن ثمة من ضرورة لها ...

- أكنت تظن هذه النتيجة مقدما؟

- إن المرء عندما يستخلص النتائج المنطقية لما بين يديه من القرائن لا يسمى هذا حدسا وتخمينًا ...

- لكن لم استخلصت هذه النتيجة؟ فوضع "بوارو" يده في جيبه وأخرج فرسا بيضاء ... وهتفت:

- عجباً ... لقد نسيت أن تردها إلى الدكتور "سافارونوف" ...

- أنت مخطئ يا صديقي ... إن الفرس الأخرى لا تزال في مكانها من جيبي الشمال إنما أخذت رفيقتها من صندوق الشطرنج الذي أباحت لي الأنسة "دافيلوف" فحصه.

- ولماذا أخذتها؟

- أردت أن أرى هل القطعتان متماثلتان ...؟ ووضعهما على المنضدة جنباً إلى

جنب فقلت:

- إنهما متماثلتان آتم التماثل ... فقال "بوارو" وقد أمال رأسه قليلا:

- اعترف بأنهما تلوحان للنظر هكذا... لكن المرء لا ينبغي له أن يسلم بأمر من الأمور قبل التثبت منه... أرجو أن تحضر ميزاني الصغير. ووزن القطعتين بدقة، ثم انثنى نحوي متهللاً:

- لقد كنت على حق، محال أن يخدع "هركيول بوارو"... ثم أسرع إلى التليفون وهتف بعد قليل:

- هذا أنت يا "جابه"؟ أنا "هركيول بوارو"... راقب الخادم "إيفان" ولا تدعه يفلت من يدك بأي حال من الأحوال... أجل... أجل. ألقى بالسماعة وانثنى نحوي قائلاً:

- ألم تدرك الحقيقة يا "هاستنجنز"؟ سأشرح لك ما خفي عليك... إن "ولسون" لم يمت بالسم بل بصدمة كهربائية، فإن قصبه معدنية رقيقة تمر بوسط إحدى هاتين الفرسين. وقد جهزت منضدة اللعب سلفاً ووضعت على نقطة معينة من أرض الغرفة... فلما وضعت الفرس على أحد المربعات الفضية سرى التيار الكهربائي إلى جسم "ولسون" وقتله في الحال، ولم يترك أي أثر سوى الحرق الكهربائي الذي بيده... يده اليسرى؛ لأنه أعسر، وكانت تلك "المنضدة الخاصة" جهازاً دقيقاً عجبياً، أما المنضدة التي رأيناها فلم تكن سوى منضدة تشبهها في الظاهر فقط، وقد استبدلت بالمنضدة الأخرى عقب القتل مباشرة... أما التيار فكان مصدره الشقة السفلى، وقد أجرت مفروشة كما تعلم، لكن القاتل كان له شريك على الأقل في مسكن "سافارونوف"، ولا ريب في أن الفتاة من أعوان "الأربعة العظام"، وهي تعمل على وراثة أموال "سافارونوف"...

- و"إيفان"؟

- إن لديّ شبهة قوية في أن "إيفان" ليس إلا رقم 4.

- ماذا تقول؟

- أجل... إن الرجل بارع براعة تفوق كل حد في التنكر وبوسعه أن يظهر في أية شخصية يشاء. فأخذت أعود بتفكيرتي إلى حيله السابقة والشخصيات التي

انتحلها: حارس مستشفى المجانين، وعامل الجزار، والطبيب المزيف، وكان الذي ظهر بتلك الشخصيات جميعا هو رجل واحد، ولكنه كان في كل مرة يختلف عن سواها اختلافا تاماً... وقلت أخيراً:

- أجل... إن الوقائع تؤيد صدق نظرك، وقد كان "سافارونوف" يخشى مثل هذه المكيدة فكان يحاول الامتناع عن اللعب... وانثنى عني "بوارو" فجأة وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ثم سألني:

- أليس عندك أي كتاب في لعبة الشطرنج يا صديقي؟

- أظن أن عندي كتاباً في هذا الموضوع...

وبحثت عن الكتاب حتى عثرت عليه فجئت به إلى "بوارو"، وتناولته مني واستقر في مقعده وراح يتصفحه باهتمام... وبعد ربع ساعة دق التليفون فتناولت السماعة... وكان المتحدث هو المفتش "جواب" فآخبرني بأن الخادم "إيفان" غادر المسكن متأبطاً ربطة كبيرة، ووثب إلى سيارة أجرة كانت في انتظاره فبدأت المطاردة، وكان واضحاً من حركاته أنه يريد الاختفاء عن مطارديه، ويظهر أنه ظن في النهاية أنه نجح في ذلك فقصده إلى بيت كبير خال في "هامبستيد"، وقد حوصر البيت. وكان "بوارو" يحملني إليّ شارداً كأنه لا يسمع كلمة مما أقول وفي يده كتاب الشطرنج... وقال أخيراً وهو يتلو عليّ طريقة "روي لوبيز":

- ومنها ترى أن الحركة الثالثة هي التي قتلت "ولسون". فقلت له:

- إنني لا أفهم شيئاً مما تعنيه. قال:

- هب يا "هاستنجز" أنك سمعت وأنت على هذا المقعد صوت فتح الباب

الخارجي وإقفاله فما الذي تعتقده؟

- أعتقد أن شخصاً قد خرج من البيت...

- أجل... لكن لكل أمر وجهان، فإما أن يكون هذا الشخص قد خرج، أو يكون قد دخل، وهما شيئان مختلفان كل الاختلاف... ولكنك إذا كنت قد فكرت في الوجه الخاطئ، فسرعان ما تجد شيئاً تافهاً ينبهك إلى أنك ضللت السبيل...

– ماذا تعني بكل هذا يا "بوارو"؟ فهب "بوارو" واقفا بنشاط عجيب وهو يقول:

– أعني أنني كنت مغفلا أحمق... هيا بنا نسرع إلى مسكن شارع "وستمنستر" لندركه قبل فوات الأوان.

وركبنا سيارة أجرة انطلقت بنا تطوي الأرض، و"بوارو" صامت عن أسئلتي لا يشفي غليلي بكلمة. رحنا نطرق باب مسكن الدكتور "سافارونوف" طرقا عنيفا متواصلا دون أن يجيبنا أحد، ولكننا سمعنا أنينا مكبوتا ينبعث من الداخل. ووجدنا مع بواب العمارة مفتاحاً للأبواب كلها، واستطعنا إقناعه بفتح باب المسكن بعد جهد.

وتقدمنا "بوارو" مسرعا إلى الغرفة الداخلية فطالعتنا رائحة الكلوروفورم، وألقينا على الأرض "سونيا دافيلوف" موثقة مكمة، وعلى أنفها وفمها قطعة كبيرة من القطن المبلل بالمخدر، فبادر "بوارو" إلى رفع القطن وإسعافها والعمل على إعادتها إلى الصواب ولم يكن ثمة أثر للدكتور "سافارونوف". وسألته وأنا في أشد الحيرة:

– ما معنى كل هذا؟

– معناه أنني اخترت النتيجة الخاطئة، لقد سمعتني أقول إنه من السهل تقليد شخصية "سونيا دافيلوف"؛ لأن خالها لم يرها منذ زمن بعيد؟

– أجل.

– لقد كان عكس ذلك صحيحا أيضا. كان من السهل كذلك تقليد شخصية خالها.

– ماذا؟

– إن "سافارونوف" مات فعلا في أول عهد الثورة البلشفية، والرجل الذي كان يزعم أنه نجا بجلده بعد ركوب المخاطر ومعاناة الأهوال... الرجل الذي تغيرت هيئته حتى كاد ينكره من يعرفونه... الرجل الذي نجح في إثبات حقه في ثروة طائلة...
– فهمت من هو؟

– رقم 14 ولم يكن عجبيا أن يعروه الوجل والخوف عندما أخبرته بأنها سمعت بعض حديثه السري عن الأربعة . وها هو قد أفلت مرة أخرى، إذ علم أن الحقيقة ستتكشف لي أخيرا، فارسل "إيفان" الخادم الشريف في سباق وهمي، وخدر الفتاة، وفر هاربا بعد أن استولى فيما أرجح على معظم الودائع التي خلفتها السيدة "جوسبوجا" .

– لكن من الذي حاول قتله إذن؟

– لم يحاول قتله أحد لكن "ولسون" كان ضحية كيدته وتدبيره .

– وما الذي حدا به إلى ذلك؟

– لقد كان "سافارونوف" ثاني لاعب شطرنج في العالم كله يا صديقي، أما رقم 4 فيغلب على ظني أنه لا يعرف حتى المبادئ الأولية لهذه اللعبة، وقد حاول جهده تحاشي تلك المباراة، فلما أخفقت جهوده في ذلك أصبح "ولسون" مقضيا عليه بالهلاك فقد كان يجب أن يحال بأي ثمن بينه وبين اكتشاف جهل "سافارونوف" العظيم بأبسط مبادئ هذه اللعبة . وكان "ولسون" يستعملها، فدبر رقم 4 خطته لإهلاك "ولسون" في الحركة الثالثة قبل أن يتطور اللعب إلى ما يكشف عن جهله أمام "ولسون" وأمام المشاهدين .

– أترانا يا عزيزي "بوارو" نواجه مجنوننا يلغ في الدماء بلا قصد ولا غاية؟ فضم "بوارو" حاجبيه قائلا:

– كانت هناك وسائل أخرى بلا ريب ولكنها دون هذه الوسيلة في قوة الإقناع، لكن رقم 4 لا يفكر كما تفكر أنت، ولا تروعه الجريمة كما تروعك . فهززت رأسي قائلا:

– من العسير مع ذلك أن أفهم كيف يقدم أحد من الناس على مجازفة بوسعه تجنبها . فهتف "بوارو" ساخرا:

– مجازفة؟ أين هي المجازفة؟ هل كان في مقدور "جواب" أن يستجلي الحقيقة؟ كلا، فلو لم يقترب رقم 4 خطأ بسيطا لما كانت هناك أية مجازفة .

– وما الخطأ الذي اقترفه؟

– لقد سها يا صديقي عن الخلايا الرمادية الصغيرة التي في رأس "هركيول بوارو". لقد كانت لصديقي "بوارو" فضائله الكثيرة، لكن فضيلة التواضع لم تكن من بينها.

- 11 -

كنا في يوم مطير قارس البرد من أيام كانون الثاني (يناير)، وقد جلست و"بوارو" على كשב من الموقد، وصديقي يلحظني وعلى فمه ابتسامة غامضة لم أفهم لها معنى. وقلت:

– من لي بمعرفة ما تفكر فيه!

– إن ما أفكر فيه هو أنك قلت عند مجيئك في الصيف إنك ستمكث هنا شهرين، ويظهر أنك عدلت بعد ذلك عن هذا القرار فلماذا؟

– قاتلك الله يا "بوارو"! أظن أنني أتركك وحدك وأنت تكافح هيئة رهيبة كـ"الأربعة العظام"! فأوماً "بوارو" قائلاً:

– ما عدوت ما جال في خاطري، فنعم الصديق أنت يا "هاستنجز"، لكن ما عسى أن يكون رأي زوجتك؟!

– إنها ستقدر موقفني وإن لم أبعث إليها بشيء من التفاصيل، وهي آخر من يرضى بأن أتخلى عن صديق.

– أجل... إنها لوفية مثلك بعهود المودة... لكن مهمتنا قد تستغرق وقتاً طويلاً. قلت:

– لقد انقضت ستة أشهر ولا نزال حيث كنا يا "بوارو". ولعلك تعرف أن من رأيي أن نفعل شيئاً.

– إنك دائماً جم النشاط يا "هاستنجز"... لكن ماذا تريد أن نفعل على وجه الدقة والتحديد؟

- يجب أن نتخذ خطة الهجوم... فما الذي فعلناه في خلال هذه الفترة؟
- أكثر مما تظن يا صديقي... فقد كشفنا الحجب عن شخصيتي رقم 2 ورقم 3، وقد عرفنا قدرا ليس باليسير عن أساليب رقم 4 ووسائله.
وانجلي عني بعض ما كنت أجده من الضيق والحرج، فإن الأمور كما يقول "بوارو" ليست بالسيئة جداً. واسترسل "بوارو" في الحديث قائلاً:
- لقد أنجزنا الكثير، ولم يكن بوسعي أن أوجه اتهاماً إلى "رايلاند" أو السيدة "أوليفيه" إذ لن يصدقني أحد.
- ورقم 4؟

- لقد بدأت ألم بأساليبه ووسائله كما قلت، إنها مبارزة بيننا، وبينما لا يفتأ هو يكشف لي عن عقليته، فإني أعمل على أن يظل على تمام الجهل بعقليتي. قلت:
- ولكنهم على كل حال قد تركونا وشأننا فلم يحاولوا الفتك بك ولم ينصبوا لك شركاً جديداً. أجاب "بوارو" مفكراً:

- كلا. وإن هذا ليثير عجبى، لا سيما وأن أمامهم طرقاً لمناواتنا. قلت:
- لعلك تعني آلة من الآلات الجهنمية. أجاب "بوارو" متبرماً:
- كلا! إني أدعوك إلى التفكير وسأخرج للرياضة قليلاً على الرغم من رداءة الطقس. وخرج "بوارو" فاستغرقت في مطالعة بعض الكتب وأخذتني سنة من النوم نبهني منها طرق السيدة "بيرسون" على الباب وقالت:

- هذه برقية لك يا كابتن. وفضضت الغلاف دون اكتراث، ولكني لم ألث أن جمدت في مكاني كأنني تمثال من الحجر... فقد كانت البرقية من "برونسين" وكيل أعمالني في "أمريكا الجنوبية"، قال فيها:

"اختفت السيدة "هاستنجز" أمس وأخشى أن تكون قد اختطفتها عصابة تسمى "الأربعة العظام"، وقد أبلغت البوليس تلغرافياً لكن لم يوقف لها على أثر حتى الآن".

أومات إلى السيدة "بيرسون" بمغادرة الغرفة، وجلست أقرأ الكلمات المشؤومة

المررة تلو المرة وأنا موزع القلب شارد اللب. زوجتي اختطفت! وفي يد عصابة "الأربعة العظام" الرهيبة؟ رياه ما عساي أن أفعل!

"بوارو" ! أحتاج إلى "بوارو" ! سيهديني في حيرتي، وسيحبط كيدهم بطريقة من الطرق... سيعود بعد بضعة دقائق، ولا مناص لي من الصبر والانتظار... لكن زوجتي في قبضة "الأربعة العظام" ! وطرق الباب ثانية، وأطلت السيدة "بيرسون" منه قائلة:

— بطاقة لك يا كابتن. جاء بها وثنى صيني لا يزال في الانتظار. واختطفت منها الرسالة، وكانت موجزة واضحة:

"إذا كانت بك من رغبة في رؤية زوجتك ثانية فاذهب في الحال مع حامل هذه البطاقة، لا تترك أية رسالة لصديقك وإلا كانت العاقبة وبالاً عليها". وكانت البطاقة موقعة برقم 4.

لم يتسع أمامي الوقت لإعمال الروية والفكر، ولم يكن في خاطري سوى أمر واحد... زوجتي في قبضة هؤلاء الشياطين فلا مناص لي من الذهاب مع ذلك الصيني ولو قادني إلى الهلاك. وهبطت السلم فالفيت في انتظاري صينياً طويل القامة جامد القسما يتكلم الإنجليزية بطلاقة. وقال:

— أعطني البطاقة من فضلك. وكنت قد توقعت هذا الطلب فقدمتها إليه، ولكنه قال:

— لقد تلقيت منذ هنيهة برقية صادرة من "أمريكا الجنوبية"؟ وراعتني دقة نظام الجاسوسية عند "الأربعة العظام" وإحكام خططهم ولم أر فائدة في الإنكار فقلت: — نعم تلقيت برقية.

— هل لك أن تجيئني بها الآن؟ وعضضت على شفتي قهراً وغيظاً وأنا أرتقي السلم، والتقيت بالسيدة "بيرسون" فخطر لي أن أسر إليها بنياً اختطاف زوجتي لتبلغ "بوارو"، وأشفقت على زوجتي من العاقبة إذا فعلت ذلك.

وأخذت البرقية وأوشكت على العودة عندما أشرقت في ذهني فكرة فجائية، ألا

يمكن أن أخلف ورائي إشارة يفهمها "بوارو" دون أن يفطن أعداؤنا إلى دلالتها؟ لقد عنفني "بوارو" هذا الصباح شديداً؛ لأنه رأى بعض الكتب متناثرة على الأرض وهو مولع بالتنسيق والنظام لا يطيق شيئاً من مناظر الفوضى والاختلاط. وأسرعنا إلى دواب الكتب وأخذت منه أربعة مجلدات ألقيتها على الأرض موقناً أن عين "بوارو" الناقدة لن تخطئها من أول وهلة وأنه سيرى في ذلك أمراً غير عادي بعد المحاضرة التي ألقاها عليّ في الصباح... وبعد ذلك هبطت إلى الطابق الأرضي فتناول الصيني البرقية مني وقرأها ثم وضعها في جيبه وأشار إليّ بأن أتبعه.

وما زال دليلي يقطع الشوارع الضيقة الملتوية حتى وقف أمام بيت حقير عتيق وطرق الباب أربع طرقات، وفتح الباب لنا في الحال صيني آخر تنحى جانباً لكي ندخل، وكان صوت إغلاق الباب من خلفي بمثابة أنني غدت في قبضة العدو فعلاً، وتخلّى عني الدليل فقادني صيني آخر على سلم نزل بنا إلى قبو تشغله البالات والبراميل، وتفوح فيه رائحة حادة نفاذة كرائحة التوابل الشرقية، وشعرت من حولي بجو شرقي خالص رهيب، ثم رفع قائدي برميلين من طريقنا فانكشفت أمامي ثغرة في الجدار تشبه النفق، وتقدم الصيني وطرق أربع طرقات على أحد الجدران فدار جزء من الجدار وانفتح أمامنا باب ضيق نفذت منه، فتولتني الدهشة والذهول إذ ألفيت نفسي فيما يشبه قصراً من قصور ألف ليلة، وكانت قاعة مستطيلة منخفضة السقف تحت الأرض، كُست جدرانها بأستار الدمقس والحرير، وانتشرت في أرجائها الأنوار الساطعة، وتضوعت في جوها الروائح الذكية، وكانت بها خمس أو ست أرائك، وغطيت أرضها بروائع السجاد الصيني، وفي نهايتها فجوة أسدل عليها ستار، وانبعث من خلف الستار صوت يقول:

— هل جئت بضيفنا المحترم؟ فأجاب قائدي:

— إنه هنا يا صاحب السعادة.

— دع ضيفنا يدخل.

وعند ذلك رفعت الستار يد خفية، فرايت أمامي أريكة وثيرة جلس عليها شرقي

طويل القامة، نحيف، يرتدي ثيابا عجيبة الوشي والتطريز، يدل طول أظافره على أنه من عظماء الرجال. وقال مشيرا بيده:

- تفضل بالجلوس يا كابتن "هاستنجز". لقد تقبلت رجائي الحضور في الحال، ويسرنني أن أراك. قلت:

- من أنت؟ "لي تشانج ين"؟

- كلا، إنما أنا أقل خدم السيد شانا وأهونهم قدرا، ومهمتي هي تنفيذ أوامره كما يفعل غيري من خدمه في البلدان الأخرى كـ "أمريكا الجنوبية" مثلا. فتقدمت نحوه وأنا أقول:

- أين هي؟ ماذا فعلتم بها؟

- إنها في مكان أمين لا يهتدي إليه أحد، وهي لم يمسهأ سوء... حتى الآن ولعلك تلاحظ أنني أقول "حتى الآن" أفسرت في أوصالي رعدة كردة المقرور وأنا أواجه هذا الشيطان الباسم. وصحت به:

- ماذا تبتغون؟ نقودا؟

- بوسعي أن أؤكد لك يا عزيزي الكابتن "هاستنجز" أننا لا نطمع أبداً في شيء من ثروتك المتواضعة، لقد جرت عن المقصد في هذا السؤال، وما كان صاحبك الذكي الأريب ليفكر فيه. فقلت مثقل القلب:

- أرى أنكم أردتم إيقاعي في حبالكم، وقد جئت إلى هنا طائعا مختارا، فافعلوا بي ما تشاءون، وأطلقوا سراحها، إنها لا تعرف شيئا، ولا يمكن أن تكون ذات فائدة لكم، ولقد استخدمتموها في الظفر بي وهأنا في قبضتكم، وبذلك ينتهي شأنكم معها.

- إنك تتسرع في الحكم، وما كان الظفر بك هدفنا الأساسي، ولكننا نرجو أن نظفر عن طريقك بصديقك السيد "هركيول بوارو". قلت وأنا أضحك ضحكة قصيرة:

- أخشى أن يخيب أملككم. ومضى الصيني في قوله كأنه لم يسمع:

– إن ما أطلبه منك هو هذا: يجب أن تكتب إلى السيد "هركيول بوارو" رسالة تحمله على المبادرة إلى الحضور إلى هنا. فقلت مغضبا:

– لن أفعل شيئا كهذا.

– لن تكون عواقب رفضك حميدة، إنها قد تعني الموت. فعرتني رعدة عنيفة ولكنني عقدت عزمي على التعلق بأهداب الشجاعة والعزم وقلت:

– لا فائدة من إرهابي وتهديدي، دع ذلك للجناء الصينيين.

– إن تهديداتي حقيقية يا كابتن "هاستنجز"، وإني لأسالك ثانية: أتريد كتابة الرسالة؟

– لن أفعل، وفوق ذلك لن تستطيعوا قتلي وإلا انطلق البوليس في أثركم في الحال.

فصفق بيديه تصفيقا وإذا بخادمين صينيين كأنهما هبطا من السماء، وسرعان ما أوثقا ذراعي، وألقى إليهما سيدهما كلمات سريعة باللغة الصينية، فسحباني إلى نقطة بأحد أركان الغرفة الفسيحة. وانحني أحدهما فمادت الأرض فجأة تحت قدمي، ولولا يد الرجل الآخر لهويت في الهوة المظلمة التي رأيتها تحتي، والتي تصاعد إليّ منها صوت تدفق المياه. وقال الصيني من مجلسه على الأريكة:

– هذا هو النهر. ترو في الأمر جيدا يا سيد "هاستنجز"، فإذا رفضت ثانية ذهبت إلى الأبدية، وهأنا أسالك لآخر مرة، هل تكتب الرسالة؟ وإني لأعترف بأن الرهبة من الموت تملكنتني، وكنت واثقا بأن هذا الشيطان الصيني يعني ما يقول، فاضطرب صوتي رغما عني وأنا أجيبه:

– ولآخر مرة أقول كلا!

أغضضت عيني ورحت أتلو صلاة قصيرة. عندما جابهت ذلك الصيني بالإصرار على الرفض والامتناع كنت موقنا بأن الكلمات التي ألقيتها إليه هي آخر ما تنفجر عنه شفتاي في هذه الحياة، ورحت أستجمع أطراف شجاعتي وعزمي لاستقبال مصيري الرهيب، ولكنني كدت أصعق دهشا وعجبا عندما طرقت سمعي ضحكة

خافته ففتحت عيني، وصدع حارساي بإشارة من الرجل فعادا بي إلى مجلسي الاول قبلته. وقال :

- أنت رجل باسل يا كابتن "هاستنجز"، ونحن -معشر الشرقيين- نقدر البسالة والشجاعة، وإني لأصارحك بأنني لم أكن أتوقع منك غير ما فعلت، وهذا يفضي بنا إلى الفصل الثاني من مأساتنا الصغيرة لقد واجهت موتك في جرة وثبات، فهل تقوى كذلك على مواجهة موت شخص آخر؟ فسألته في صوت أجش والذعر يعصر فؤادي عصرا:

- ماذا تعني؟

- لا ريب في أنك لم تنس السيدة التي في قبضتنا. فرحت أحملق إليه معقود اللسان عاجزا عن النطق. واستطرد الشقي قائلا:

- أظن يا كابتن "هاستنجز" أنك ستكتب هذه الرسالة. تفصد جبيني عرقا، ومضى معذبي في كلامه بصوت هادئ:

- إن القلم يا كسابتن في متناول يدك، وليس عليك إلا أن تكتب، فإن لم تفعل... ماتت السيدة التي تحبها. ومضى الشقي يصف تلك الوسائل الجهنمية. وقال:

- أرى أن فيما ذكرته الكفاية، خذ القلم واكتب.

- إنكم لن تجرؤوا...

- خذ القلم واكتب.

- وإذا كتبت؟

- يُخلّى سبيل زوجتك إذ ترسل البرقية في الحال.

- وكيف أثق بوفائكم بوعدكم؟

- أقسم لك على ذلك بقبور أجدادي المقدسة، وفوق ذلك ما الذي أفيده من إيذائها؟ إن اجتازها سيكون قد أدى الغاية المقصودة منه.

- و"بوارو"؟

- سنعتقله في مكان أمين حتى نفرغ من عملياتنا ثم نطلق سراحه .

- ألتقسم على ذلك أيضا بقبور أجدادك ؟

- لقد أقسمت قسما واحدا وفيه الكفاية . ثم أملت على الرسالة التالية بعد أن نظر في طائفة من المذكرات :

"عزيزي "بوارو" - أظن أنني في أثر "الأربعة العظام" ، فقد جاءني رجل صيني بعد الظهر برسالة ملفقة ، و شاء حسن الحظ أن أفطن إلى ذلك في الوقت المناسب فافلت منه ، ثم تعقبته من حيث لا يدري ، واعتقادي أنني وفقت في ذلك ، وإنني أوفد إليك بهذه الرسالة غلاما ذكيا فاعطه نصف كراون إذ وعدته بذلك إذا أوصل إليك الرسالة سالمة ، أما أنا فأراقب البيت ولا أستطيع الابتعاد عنه ، وسانتظر حتى الساعة السادسة فإذا لم تحضر حاولت دخول البيت وحدي ، إنها فرصة نادرة لا ينبغي إضاعتها ، وقد لا يجدك الغلام في البيت ، أما إذا وجدك فدعه يأتي بك إلى هنا في الحال ، وأرجو أن تخفي شاربك الثمين حذرا من أن يكون بداخل البيت مراقب فيعرفك ، كتبت هذه الرسالة في عجلة - ١ . هـ .

وكان أملت يذوي مع كل كلمة ، فقد صيغت الرسالة في حذق شيطاني ، ولن يكون أمام "بوارو" متسع للتأمل والتفكير ، وأخذ الصيني الرسالة وبعد أن قرأها أعطاها لأحد أتباعه الصامتين فاختمت في الغرفة في الحال . ثم أخذ الرجل ورقة من أوراق البرقيات وكتب عليها شيئا وقدمها إلي فقرأت بها "أطلقوا الطائر الأبيض في أسرع وقت" وتنفست الصعداء وقلت :

- أترسلها في الحال ؟

- سترسل عندما يغدو السيد "هركيول بوارو" في قبضتي .

- ولكنك وعدت ...

- إذا فشلت هذه الحيلة فقد أحتاج إلى طائرنا الأبيض ... لإقناعك ببذل مجهود

جديد . فهتفت وأنا أكاد أتميز من الغيظ :

- يا لله ! إذا ... وأشار بيده المعروقة الصفراء قائلا :

– اطمئن بالا، فما أعتقد أنها تفشل، وسأبر بقسمي حالما يقع السيد "بوارو" في يدي.

– وإذا خدعتني ...

– لقد أقسمت بأجدادي فلا تخف، والآن سافاركك قليلا وسيأتيك الخدم بكل ما تشاء.

وجاءني أحد الخادمين الصينيين بطعام وشراب، ولكنني كنت حزينا مهموما فاشرت إليه برفعهما، وسرعان ما عاد ذلك الصيني الطويل القامة المهيب الطلعة وأخذ يصدر الأوامر، فعادوا بي إلى البيت وأدخلوني غرفة بالطابق الأرضي. وكانت النوافذ مغلقة، ولكنني استطعت النظر إلى الشارع من خلال خشب المصاريع، وكان على الجانب المقابل رجل رث الثياب مشعث الهيئة يشير نحو النافذة فعلمت أنه من العصابة. وقال الرجل الصيني:

– لقد وقع "هركيول بوارو" في الشرك، وهو يدنو الآن وليس معه غير الغلام الذي يدلّه على الطريق، والآن يا كابتن "هاستنجز" لا يزال عليك أن تقوم بدور آخر، إنه لن يدخل البيت إلا إذا ظهرت له، فيجب عند وصوله إلى الجانب المقابل أن تقف على عتبة البيت وتشير إليه بالدخول.

– ماذا؟

– يجب أن تقوم بهذا الدور وحدك، ولا تنس ثمن الفشل فإذا ساور "هركيول بوارو" أي شك ولم يدخل البيت، ماتت زوجتك أشنع مية. آه ... ها هو!

ورأيت من شق المصراع صديقي يسير في الجانب الآخر من الشارع، ولقد عرفته فوراً ولو أنه رفع ياقة معطفه ولف النصف الأسفل من وجهه في كوفية كبيرة صفراء اللون، وكان يسير بجانبه غلام من صبية "لندن" المتشردين. ووقف "بوارو" ينظر إلى البيت والغلام يحادثه ويشير بيده. وكان يجب حينذاك أن أقوم بدوري، فخرجت إلى الردهة، ورفّع مزلاج الباب، وقال خصمي همسا:

– اذكر ثمن الفشل. وكنت قد وقفت على السلم أمام الباب، فاشرت إلى

"بوارو" وأسرع يعبر الشارع إليّ قائلاً:

— آه! إذن فأنت بخير يا صديقي، لقد بدأ القلق يساورني هل البيت خال؟ فاجبته بصوت حاولت جهدي أن يكون طبيعياً:

— أجل، ولا ريب في أن به منفذا خفياً إلى الخارج. تعال لنبحث عنه.

ورجعت خطوة كي يدخل وأوشك "بوارو" أن يتبعني وهو يجهل ما أعد له، وعند ذلك عراني ما يشبه الجنون، فلم أعد أرى إلا أنني أقوم بدور "يهوذا" الخائن الغادر، وانطلقت أصيح:

— إلى الراء يا "بوارو" إلى الراء وأنج بحياتك! إنه شرك فدعك مني واذهب في الحال!

وما كدت أصبح كذلك حتى أطبقت عليّ الأيدي كالكلاليب الحديدية، ووثب أحد الخادمين الصينيين من جانبي ليمسك "بوارو"، ورايت "بوارو" يقفز إلى الراء رافعا ذراعه، ثم تصاعد من حولي دخان كثيف شعرت بأنه يقتلني اختناقاً... ثبت إلى الرشد في ببطء وألم مضعضع الحواس، وكان أول ما طالعني هو وجه "بوارو" وكان جالسا يرمقني بنظرات يتجلى فيها الخوف والقلق، وهتف جذلاً عندما رأيته أنظر إليه. وقال:

— لقد عدت إلى الصواب يا صديقي المسكين! قلت بضعف:

— أين أنا؟

— في بيتك بالتأكيد! ورحت أدور بعيني في الغرفة فكان كل شيء كما عهدت، واستقر بصري على الكتب الأربعة فهتف "بوارو":

— أجل... لقد كانت فكرة رائعة منك، ومحال أن يزعم أحد بعدها أنك لست من أصحاب العقول الكبيرة.

— لقد فهمت إذن معناها؟

— أتراني غيباً بليد الفهم؟ بالتأكيد فهمتها، لقد أدركت أن "الأربعة العظام" قد أخذوك بوسيلة ما، فما غايتهم من ذلك؟ لم يأخذوك بالتأكيد لسواد عينيك، ولا

لأنهم يخشون بأسك ويريدون تنحيك عن طريقهم. كلا، لقد كان من الواضح ومن البين أنهم يريدون أن يستعملوك في إيقاع "بوارو" العظيم بين برائتهم، وكنت متأهبا منذ زمن طويل لحيلة من هذا القبيل، فاتخذت أهيتي. وسرعان ما جاء الرسول... وهو صبي صغير من أبناء الشوارع، فابتلعت الطعم وأسرعت معه، وكان من حسن الحظ أن تركوك تخرج أمام الباب، فقد كان أشد ما خشيته أن اضطر إلى الانتهاء منهم قبل الانتهاء إلى المكان الذي أخفوك فيه، وأن أبحث عنك بعد ذلك بحثا قد تكون عاقبته الفشل. فقلت بصوت واهن:

- أكنت تطمع في التغلب عليهم وحدك؟

- ليس في هذا من المهارة والمقدرة، فإن المرء إذا تاهب للأمر سلفا بات كل شيء سهلا ميسورا كما يقول الكشافة، وقد أسديت خدمة إلى أحد مشاهير الكيماويين منذ زمن بعيد، وهو كيماوي اشتغل كثيرا بشؤون الغازات السامة في أثناء الحرب، وصنع لي هذا الكيماوي قنابل صغيرة سهلة الحمل لا يكاد المرء يقذفها حتى يتصاعد دخان كثيف يعقبه فقد الوعي، وقد نفخت في صفارة صغيرة فهب إلي جماعة من أقدر رجال صديقنا المفتش "جانب" كانوا يلاحظون بيتنا من قبل مجيء الغلام بوقت طويل، واقتفوا أثري أنا والغلام إلى الحي الصيني.

- وكيف ظللت أنت محتفظا بوعيك؟

- كان ذلك من حسن الحظ أيضا... فقد شاء صديقنا رقم 4، ولست أشك قط في أنه هو الذي أملى عليك الرسالة، أن يمزح قليلا على حساب شاربي، فأتاح لي هذا إخفاء جهاز التنفس تحت الكوفية. وصحت فجأة:

- لقد تذكرت. وعند ذلك مثل في خاطري ذلك الهول الذي نسيته إلى حين... زوجتي... وتهافت وأنا أئن أنينا موجعا، فلما انتبهت رأيت "بوارو" يسكب بين فكي قليلا من الشراب. وقال عندما رآني أفتح عيني:

- ماذا أصابك يا صديقي؟ فقصصت عليه القصة كلها وأنا أرتجف فرقا. وهتف

"بوارو":

- وارحمته لك يا صديقي! شد ما تأملت! لكن لا تحزن ولا تبتئس فإن كل شيء على ما يرام.

- اتعني أنك سوف تهتدي إليها؟ ولكنها في "أمريكا الجنوبية" وستكون في عداد الهالكين قبل أن نصل إليها، ولا يعلم إلا الله ما تلقى في موتها من صنوف التنكيل والتعذيب.

- كلا... كلا... إنها بمأمن من كل سوء ولم تكن في قبضتهم لحظة واحدة.

- ولكنني تلقيت برقية من وكيلي "برونسين"!

- قد تكون تلقيت برقية من "أمريكا الجنوبية" بتوقيع "برونسين" ولكنها مزورة، ألم يخطر لك قط أن عصابة من هذا الطراز تتغلغل فروعها في جميع أنحاء العالم قد تضربنا في شخص تلك الفتاة الصغيرة التي تهيم بها حباً؟

- كلا... لم يخطر هذا ببالي قط.

- أما أنا فقد فكرت فيه، ولئن كنت أمسكت عن التحدث إليك في شأنه حتى لا أثير قلقك بلا موجب، فإني اتخذت الإجراءات المناسبة، وكانت رسائل زوجتك كلها تبدو كأنها صادرة من المزرعة، لكن زوجتك في مخبأ أمين منذ أكثر من ثلاثة أشهر. فنظرت إليه طويلاً ثم قلت:

- أوافق بذلك؟

- كل الثقة، لقد كانوا يعذبونك بكذبة!

- 12 -

بعثت في نفسي الشعور بالخيبة والقنوط نتائج هجوم "بوارو" بالقنبلة على بيت الحلي الصيني. فقد فر زعيم تلك العصابة، ولم يجد رجال المفتش "جاب" عندما هرعوا استجابة لصفير "بوارو" سوى أربعة من الصينيين غائبين عن الصواب بالردهة، ولم يكن بينهم الرجل الذي هددني بالموت، وقد تذكرت فيما بعد أنه عندما أرغمت على الظهور بباب البيت لاستدراج "بوارو"، كان ذلك الرجل

حريصا على أن يكون في المؤخرة دائما فلا ريب في أنه كان بعيدا عن نطاق قنبلة الغاز.

وما وافى اليوم التالي حتى تعافيت تماما من آثار الغاز، فذهبنا إلى ذلك البيت في الحى الصينى بمعاونة المفتش "جواب"، ولم نجد به شيئا ذا قيمة سوى المذكرات التى نظر فيها الرجل الصينى وهو يملى على الرسالة إلى "بوارو"، وكانت تحوى تفصيلا دقيقا لحياة كل منا وطباعه وأخلاقه ونقط الضعف التى فيه. وابتهج "بوارو" بهذه المذكرات ابتهاجا صبيانياً دون أن أرى فيها ما يقدم أو يؤخر فى قضيتنا، وصارحت "بوارو" بهذا فقلت:

— إنك لتعرف الآن يا عزيزى "بوارو" رأى العدو فىنا. ويظهر أنه يقدر قوتك العقلية تقديرا مبالغاً فيه، كما يحط من قدر عقليتي إلى درجة سخيفة، ولكنى لا أرى كيف يفيدنا العلم بذلك قليلا أو كثيرا.

— ألا ترى فائدة ذلك يا "هاستنجز"؟ لا ريب أن فى مقدورنا الآن الاحتياط من بعض طرقهم فى الهجوم، فنحن نعرف يا صديقى أنه يجب عليك التروى والتبصر قبل الإقدام، كما نعرف أنه يجب عليك إذا لقيت فتاة حمراء الشعر فى مازق من المازق أن تنظر إليها بعين الريبة والشك.

وكان قد جاء بتلك المذكرات أننى طائش متسرع، وأننى سريع الاستجابة لحاسن الفتيات ذوات الشعر الأحمر، ورأيت فى تلميح "بوارو" منافاة لحسن الذوق، لكن كان بوسعى لحسن الحظ أن أجيب على الضربة بمثلها فقلت:

— وأنت؟ ألا تنوي أن تعالج "غرورك المتعجرف" وتحد من "ولعك الجنونى بالترتيب والنظام"؟ وقال:

— إنهم يخدعون أنفسهم فى بعض الشؤون يا "هاستنجز"، وهذا حسن. سيعرفون خطاهم فى الوقت المناسب، على أننا قد عرفنا شيئا، وإن لم نعرف الكفاية، فإن علينا أن نناضل أربعة خصوم، أى أربع شخصيات مختلفة. ولم نحتك برقم 1 شخصياً ولكننا شاهدنا آثار عقله، وقد بدأت أفهم هذا العقل فهما

جيدا، إنه عقل شرقي بعيد الغور شديد الدهاء، وكل خطة أو مكيدة التقينا بها كانت صادرة عن عقل "لي تشانج ين". أما رقم 2 ورقم 3 فمن العظمة وسمو المنزلة الاجتماعية بحيث لا ترقى إليهما هجمائنا. بيد أن سمو مركزهما الاجتماعي إذا كان وقاية لهما منا فإنه وقاية لنا منهما كذلك، إذ يفرض عليهما التحفظ في حركاتهما، وهكذا نصل إلى آخر عضو بالعصاة... إلى الرجل الذي يطلق عليه رقم 4. وتغير صوت "بوارو" قليلا كما كان يتغير دائما عند ذكر رقم 4. ومضى قائلا:

- إن رقم 4 إنما ينجح بالغموض والخفاء، فلا يدري أحد من هو، وليس يدري أحد ماهيته، كم مرة رأيناه، أنت وأنا، خمس مرات! لكن هل يستطيع أحدنا أن يقول صادقا إن بوسعه معرفته إذا لقيه؟

واضطرت إلى أن أهز رأسي نفيًا عندما استعرضت في ذهني أولئك الرجال الخمسة الذين كانوا مختلفين أشد الاختلاف ولكنهم مع ذلك شخص واحد. وقلت في يأس:

- كلا. إننا لم نعرف شيئا قط نستطيع الاهتداء به. فابتسم "بوارو" قائلا:

- لا تستسلم يا صديقي للياس والقنوط نحن نعرف أنه رجل معتدل القامة، متوسط لون البشرة أو فاتح اللون. فلو كان فارغ الطول أسمر البشرة لما أتيج له بحال أن يبدو في هيئة ذلك الطبيب الربع القامة الأشقر البشرة... وكان من السهل بالتأكيد أن يزيد قامته اثنين ونصف سنتيمتر أو خمسة سنتيمترات ليبدو في هيئة الخادم "جيمس" أو الأستاذ الروسي... ويجب كذلك أن يكون ذا أنف قصير مستقيم، فمن الممكن دائما تكبير الأنف الصغير بوسائل المكياج البارعة، لكن من المحال تصغير الأنف الكبير... ويجب أيضا أن يكون شابًا في مقتبل العمر، فهو رجل يتراوح عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، متوسط الطول واللون، متمكن من فن التنكر ليس في فكيه غير القليل من أسنانه الطبيعية.

- لماذا؟

- هذا أمر لا ريب فيه يا "هاستنجز"، فقد كانت أسنانه في حارس السجن مهشمة متغيرة اللون، وفي "باريس" مستوية بيضاء، وفي الطبيب بارزة قليلا، وفي "سافارونوف" مفرطة الطول محددة الأطراف... ولا يغير من منظر الوجه مثل طقم مختلف الاسنان الصناعية، فهل ترى إلام يفضي بنا كل هذا؟
- لا أفهم ما تعنيه تماما.

- إنهم يقولون إن مهنة المرء مكتوبة في وجهه، أفلا ترى أن هذا الرجل ممثل أو كان كذلك في وقت من الاوقات؟

- ممثل؟ أعتقد إذن أنك تستطيع الاهتداء إلى شخصه عن طريق صلته بالمرشح؟
- إنك شديد الذكاء يا "هاستنجز". فقلت بفتور:

- كان من الخير لو أسرعْتَ هذه الفكرة إلينا فقد أضعنا وقتا طويلا.

- أنت مخطئ يا صديقي، فما أضعنا من الوقت أكثر مما كانت تتطلبه الضرورة، فمنذ عدة أشهر كان وكلائي عاكفين على هذه المهمة، ومن هؤلاء الوكلاء "جوزيف آرونز"، هل تذكره؟ وقد وضعوا لي قائمة بالرجال الذين تتوفر فيهم صفات صاحبنا، وهم فوق ذلك ممثلون هجروا التمثيل في خلال السنين الثلاث الأخيرة. فقلت وقد ازداد اهتمامي:

- حسنا؟

- كانت القائمة بطبيعة الحال طويلة ضافية الذيل، فما زلنا في فحص وتصفية حتى خرجنا منها بأربعة أشخاص يحتمل أن يكون صاحبنا أحدهم. وألقى إليّ بورقة أخذت أتلو ما فيها بصوت مسموع:

- "أرنست لوتريل"، ابن قسيس في الشمال، كانت فيه دائما ناحية من نواحي النقص الأخلاقي. طرد من المدرسة العامة. اعتلى خشبة المسرح وهو في الثالثة والعشرين. يدمن الخدرات. المعتقد أنه رحل إلى "أستراليا" منذ أربع سنين. لا يعرف عنه شيء منذ أن غادر "إنجلترا". السن 32، الطول مائة وستة وسبعون سنتيمتراً تقريباً. حليق الوجه، أسمر الشعر، مستقيم الأنف، أشقر البشرة، رمادي

العينين. "جون سنت مور" اسم مستعار، الاسم الحقيقي غير معروف، يعتقد أنه نشأ من سوقة "لندن"، اشتغل بالتمثيل منذ طفولته، كان يمثل الشخصيات الشهيرة بصالات الموسيقى، انقطعت أخباره منذ ثلاث سنين، العمر حوالي 23 سنة. الطول مائة وخمسة وسبعون سنتيمتراً. نحيف البنية، أزرق العينين، أشقر الشعر.

"أوستن لي"، اسم مستعار، الاسم الحقيقي "أوستن فولي"، من أسرة كريمة، كان ميالاً من صغره إلى التمثيل وعرف بهذا الميل في "أكسفورد"، أصيب بتهدم في أعصابه على أثر حادث اصطدام سيارة منذ ثلاث سنين ونصف، ولم يظهر على المسرح منذ ذلك الحين، ليس ثمة أي أثر يستدل به على مقره الحالي، السن 35، الطول مائة وأربعة وسبعون سنتيمتراً تقريباً. البشرة شقراء، العينان زرقاوان، الشعر أسمر.

"كلود داريل" المعتقد أن هذا هو اسمه الحقيقي يحيط بأصله الغموض، كان يمثل في صالات الموسيقى والروايات الاستعراضية، ليس له أصدقاء مقربون فيما يظهر، كان في "الصين" في سنة 1919، عاد عن طريق "أمريكا"، قام بتمثيل أدوار قليلة في "نيويورك"، انقطع عن المسرح ذات ليلة ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك، يقول بوليس "نيويورك" إنه أغرب حادث اختفاء، السن حوالي 33، الشعر أسمر، البشرة شقراء، العينان رماديتان، الطول مائة وستة وسبعون سنتيمتراً. وقلت وأنا ألقى الورقة:

– طريف جداً، هذه إذن نتيجة بحث استغرق عدة أشهر هذه الأسماء الأربعة، وأي هؤلاء الأشخاص تميل إلى الشك فيه؟ فأشار "بوارو" إشارة بليغة المغزى وقال: – هذا سؤال لا يزال مفتوحاً يا صديقي، على أنني أوجه نظرك إلى أن "كلود داريل" كان في "الصين" و"أمريكا"... وهي حقيقة قد لا تخلو من معنى، لكن لا ينبغي لنا أن تحملنا هذه النقطة على التحيز لرأي معين، فقد تكون مجرد مصادفة. وسألته بشوق:

— وما الخطوة التالية؟

— إن الأمور تسير في مجراها فعلا، وستنشر كل يوم بالصحف إعلانات صيغت كلماتها في عناية وتدقيق تطلب إلى أصدقاء وأهل هذا أو ذاك من الرجال الأربعة الاتصال بمحامي في مكتبه. وقد يصلنا اليوم... آه! إن التليفون يدق! وقد يكون قد جد شيء. وعبرت الغرفة ورفعت سماعة التليفون قائلاً:

— نعم. هنا مسكن السيد "بوارو". أنا الكابتن "هاستنجز" هذا أنت يا سيد "ماكنييل"؟ (و"ماكنييل" و"هود جسون" هما محاميا "بوارو") سأخبره. أجل سيحضر في الحال وأعدت السماعة إلى مكانها وانثنييت إلى "بوارو" وأنا في أشد حالات الانفعال. وقلت:

— هناك امرأة يا "بوارو". صديقة "كلود داريل". الآنسة "فلوسي مونرو". ويطلب "ماكنييل" أن توافيه.

وسرعان ما استقللنا سيارة أجرة أسرعتنا بنا إلى مكتب "ماكنييل"، وأدخلنا إلى غرفته الخاصة، وكانت تجلس قبالة المحامي سيدة بادية الشحوب والذبول، وقد تجاوزت ريعان الشباب، وهي ذات شعر أصفر صفرة غير طبيعية يتهدل غزيراً على أذنيها، كما أنها بالغت في تكحيل عينيها، وصبغ شفتيها، وهتف "ماكنييل":

— ها هو السيد "بوارو"! أقدم إليك يا سيد "بوارو" الآنسة... "مونرو" التي تفضلت بالحضور لإعطائنا بعض المعلومات. فتقدم "بوارو" في حفاوة بالغة وصافح السيدة بحرارة وهو يقول:

— إن الآنسة تبدو كالزهرة الغضة اليانعة في هذا المكتب العتيق القاحل. ولم يضع هذا الثناء الصارخ هباء فقد تضرج وجه الآنسة "مونرو" بالاحمرار وقالت متلعثمة:

— لله أنت يا سيد "بوارو"! إني لأعرفكم معشر الفرنسيين.

— إننا لسنا جامدين أمام الجمال كالإنجليز يا آنسة، وما أعني بذلك أنني فرنسي، فإني بلجيكي كما ترين. قالت:

— لقد رأيت ذلك. كانت الأمور تتقدم تقدماً رائعاً حقاً كما قال "بوارو".

واستطرد قائلاً:

- وهكذا تستطيعين أن تنبئينا بشيء عن السيد "كلود داريل". أجابت الأنسة:

- لقد كنت على اتصال وثيق بالسيد "داريل" في وقت من الأوقات، ورأيت إعلانك وأنا أغادر أحد الحوانيت، ولما كان وقتي ملكا لي فقد قلت لنفسى ها هم محامون يسألون عن "كلود" المسكين، ولعل بين أيديهم ثروة يريدون معرفة وارثها، فمن الخير أن أذهب إليهم في الحال. فنهض السيد "ماكسيل" قائلاً:

- أتحب أن أترككم يا سيد "بوارو" حتى تفرغوا من هذا الحديث؟

- إنك لكريم الخلق، لكن ابقى، فقد خطرت لي فكرة حسنة، إن موعد الغداء يقترب، ولعل الأنسة تشرفني بالذهاب معي لتناول الطعام؟

وومضت عينا الأنسة "مونرو"، فأدركت أنها سيئة الحال وأنها لا تنظر باستخفاف إلى أية فرصة تتيح لها أكلة شهية، وبعد بضعة دقائق كنا نجلس إلى مائدة حافلة بأطيب الألوان في مطعم من أعظم مطاعم "لندن"، وراح "بوارو" يملأ كأس الأنسة بالشراب الفاخر كلما فرغت، ثم أخذ يتطرق بالتدريج إلى أحب الموضوعات إلى نفسه فقال:

- مسكين السيد "داريل"، شدة ما أتمنى لو كان معنا. وتنهدت الأنسة "مونرو"

قائلة:

- أجل... مسكين... إنني لأعجب ما الذي آل إليه أمره.

- أغاب عنك طويلاً؟

- منذ دهر كامل، لم أره منذ نشوب الحرب، لقد كان "كلود" فتى غريب الأطوار، شديد التكتّم والحذر، لا ينطق بكلمة واحدة عن نفسه... لكن هذا لا يستغرب إذا كان وارثاً مفقوداً، أهو لقب من ألقاب النبلى يا سيد "بوارو"؟ فاجاب "بوارو" دون أن يحمر وجهه خجلاً من الكذب:

- بل هي ثروة فقط وأسفاه، لكن الأمر قد يستدعي التحقق من شخصيته، ولهذا كنا نحتاج إلى من يعرفه حق المعرفة.

– لا أرى ضيراً في مصارحتك بما كان بيني وبينه يا سيد "بوارو"، فإنك شهم كريم الخلق، تعرف كيف تدعو سيدة إلى الطعام، ولقد كنت و"كلود" في ريعان الشباب، فماذا كان ينتظر منا؟ وإني لا أزال أكن له عطفاً ورفقاً، ولو أنه لم يعاملني كما يجب أن تعامل السيدات، إن الرجال جميعاً كذلك إذا كانت المسألة خاصة بالنقود. فقال "بوارو" محتجاً وهو يملأ كأسها من جديد:

– كلا... يا آنسة... لا تقولي هذا. هل تستطيعين أن تصفي لي السيد "داريل"؟ فاجابت الآنسة "فلوسي مونرو" في مثل لهجة الحالم:

– لم يكن رائع المنظر، فهو ليس بالطويل ولا القصير، ولكنه معتدل القامة، رشيقي الهيئة، يمتزج في عينيه اللونان الأزرق والرمادي، وشعره أدنى إلى الشقرة فيما أظن، ولكنه كان فناناً، إني لم أر في حياتي من يدانيه في براعته وحذقه، وقد كان خليقاً بأن يتسهم ذروة الشهرة والمجد لولا الحسد.

ورحنا نستمع بكل ما أوتينا من الصبر إلى قصة طويلة عن حادث من حوادث الغيرة والتنافس بين الممثلين. ثم استدرجها "بوارو" ثانية إلى موضوع "داريل" برفق ولباقة، وقال:

– إننا نجد لذة عظيمة في كل ما يسعك أن تحدثنا به عن السيد "داريل" يا آنسة، والنساء دقيقات الملاحظة، وهن يرين أشياء صغيرة تافهة لا يفطن إليها الرجال، وقد رأيت امرأة تتعرف إلى رجل من بين اثني عشر رجلاً، فهل تعرفين لماذا؟ لأنها لاحظت أن من عادته أن يربت أنفه إذا اضطربت أعصابه، أكان في وسع أي رجل أن يلاحظ أمراً دقيقاً كهذا؟ فهتفت الآنسة "مونرو":

– أجل إننا لنلاحظ ما تخطئه عيون الرجال، وإني لأذكر الآن أنه كان من عادة "كلود" كلما جلس إلى المائدة أن يعبث بالخبز، فيأخذ قطعة منه بين أصابعه، ويلتقط بها الفتات المتناثر أمامه.

– أليس هذا ما قلت؟ إن المرأة لعجيبة الملاحظة، هل تحدثت إليه بشأن هذه العادة التافهة يا آنسة؟

– كلا يا سيد "بوارو"، فإن الرجال لا يروقه أن يلاحظ عليهم أحد شيئاً.

ورأيت أصابعه تضطرب وهو يتناول كأسه، وقال:

— وهناك كذلك الخط كوسيلة من وسائل تحقيق الشخصية ولا ريب في أنك تحتفظين بشيء من رسائل السيد "داريل" إليك؟
— لم يكن من عادته أن يكتب شيئاً قط ولم يسطر إليّ خطأ واحداً في حياته.
قال "بوارو":

— هذا أمر يؤسف له.

— لكن عندي مع ذلك صورة فوتوغرافية له لعلك تجد فيها فائدة. فكاد "بوارو" يشب عن مقعده ابتهاجا وهو يهتف:
— أحقاً أن عندك صورة فوتوغرافية له؟
— صورة قديمة... منذ ثماني سنوات على الأقل.
— لا يهم قديمها ولا تحول لونها! هل تسمحين لي بالنظر إلى هذه الصورة يا آنسة؟

— بلا ريب. ونهضت الآنسة "مونرو" وهي تقول:
— يجب أن أنصرف. يسرنني أنني التقيت بك وبصديقك يا سيد "بوارو".
— والصورة الفوتوغرافية... متى أراها؟
— سأبحث عنها الليلة، وأظن أنني أعرف أين أجدها وسأرسلها إليك في الحال.
— ألف شكر يا آنسة. إنك لكريمة رقيقة الشمائل، وأرجو أن نتمكن من تناول الطعام معا مرة أخرى.
— عندما تشاء... إنني طوع أمرك.

— لكن عنوانك ليس عندي. فأخرجت من حقيبتها بطاقة أعطته إياها في عظمة، وكانت بطاقة قدرة محي العنوان المطبوع عليها وكتب في مكانه عنوان جديد بالقلم الرصاص.

ثم ودعنا الآنسة و"بوارو" يكثر من الإشارات والانحناء وسرعان ما قصد "بوارو" إلى التليفون وطلب وكالة لأعمال البوليس السري الخاصة، وكانت تعليماته إليها واضحة محددة. فقد كان يجب أن يذهب رجلان إلى العنوان الذي أملاه للسهر

على سلامة الأنسة "مونرو" واقتفاء أثرها أينما ذهبت، وقلت لـ "بوارو" عندما فرغ من ذلك:

— أترى هذا ضرورياً حقاً يا "بوارو"؟

— قد يكون هكذا، فلا ريب أننا تحت رقابة لا تغفل عنا طرفة عين، وسيعرفون مع من تناولنا طعام الغداء اليوم، ومن الممكن أن يشتم رقم 4 من ذلك رائحة الخطر، وما إن انقضت عشرون دقيقة حتى دق التليفون ثانية فتناولت السماعاة وسمعت صوتاً حاداً يقول:

— هل هذا هو السيد "بوارو"؟ هنا مستشفى "سنت جيمس"، لقد جيء إلى هنا بسيدة منذ عشر دقائق، ضحية حادث في الطريق، الأنسة "فلوسي مونرو"، وهي تلح في طلب السيد "بوارو"، ويجب أن يأتي في الحال فإنها لا يمكن أن تعيش طويلاً. وأعدت الحديث على "بوارو"، فامتقع وجهه امتقاعاً شديداً وهو يقول:

— أسرع يا "هاستنجز" يجب أن نسابق الريح.

وبعد عشر دقائق كنا في طريقنا إلى عنبر المصابين بالمستشفى، لكن "بوارو" رأى في وجه الممرضة التي استقبلتنا بباب العنبر ما يغني عن السؤال، وأخبرتنا الممرضة بأن المرأة المسكينة قضت نحبها منذ ست دقائق، فلما رأت "بوارو" جامداً في مكانه أخطأت في فهم ما يعتمل في نفسه وراحت تواسيه قائلة:

— إنها لم تقاس ألماً، وقد ظلت غائبة عن الصواب حتى النهاية، ولقد صدمتها سيارة كما تعلم، ولم يقف السائق الذي صدمها، وإنه لنذل أثيم، ولكنني أرجو أن يكون بعض المارة قد أخذوا رقم السيارة. فقال "بوارو" بصوت خفيض:

— إن الأقدار تناصبنا العداء.

— اتحبان أن ترياهما؟ وقادتنا الممرضة إلى داخل العنبر فرأينا "فلوسي مونرو" وقد ارتمت على شفتيها المصبوغتين ابتسامة صغيرة... وغمغم "بوارو":

— أجل. إن الأقدار تناصبنا العداء، لكن... هل هي الأقدار حقاً؟ وكأنما خطرت له فكرة مفاجئة فرفع رأسه هاتفاً:

– أقسم لك يا صديقي أمام جثة هذه المرأة المسكينة أنني لن أعرف الرحمة عندما تحين الساعة!

– ماذا تعني؟ لكن "بوارو" انثنى إلى الممرضة وراح يلقي عليها الأسئلة تباعا، ثم جيء له بقائمة الأشياء التي وجدت في حقيبتها فما كاد يتفحصها حتى هتف قائلا:

– أترى يا "هاستنجز"؟ ليس هنا أي أثر لفتح السقطة الذي كانت تحمله بلا ريب، والذي أخذه من حقيبتها أول شخص انحنى فوقها، كلا، لقد قتلت عمدا، ولكننا قد نصل قبل فوات الوقت، وقد لا يعثر في الحال على ما يبحث عنه. وبعد لحظة قصيرة كنا أمام البيت الذي أعطتنا عنوانه "فلوسي مونرو"، وهو بيت حقير في حي قدر، وانقضى شيء من الوقت قبل أن يؤذن لنا بدخول شقة الأنسة "مونرو"، ولكننا كنا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع أحد الخروج من البيت ونحن أمامه. ودخلنا أخيرا، فكانت جميع المظاهر تنبئ بأن شخصا سوانا قد سبقنا، إذ كانت محتويات الأدراج والدواليب مبعثرة في أرض المسكن، والاقفال محطمة، والمناضد مقلوبة. وأخذ "بوارو" يبحث بين الحطام فلم يلبث أن انتصب هاتفا، وكان بيده إطار عتيق لصورة فوتوغرافية... ولكنه كان خاليا... وقلبه في بلاء، وكانت على ظهره بطاقة صغيرة... كتب عليها الثمن... وقلت: – إن ثمنه أربعة شلنات.

– انظر جيدا يا "هاستنجز"، هذه بطاقة جديدة نظيفة ألصقتها بالإطار الرجل الذي أخذ الصورة... الرجل الذي كان هنا قبلنا والذي كان يعرف أننا سنحضر فترك هذه لنا... "كلود داريل"، أو رقم 4.

- 13 -

تبدلت أطوار "بوارو" بعد موت الأنسة "فلوسي مونرو" الاليم، فبدالي أن ثقته بنفسه أدركها الوهن والتصدع، وغدا دائم الاكتئاب والوجوم، يتجنب ذكر "الأربعة العظام" ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويقبل على مهامه العادية في حميته

القديمة، ولكنني كنت أعلم مع ذلك أنه يعمل سرّاً في المشكلة الكبرى؛ إذ كانت جماعة من السلافيين ذوي الهيئات العجيبة لا يفتأون يختلفون إلينا، وإن لم يفض إليّ بأي إيضاح عن هذا النشاط الغامض، وأدركت أنه عاكف على وضع خطة جديدة للدفاع أو الهجوم مستعينا بأولئك الأجانب ذوي الهيئات المنفرة.

وكثيراً ما كان يعيد عبارة واحدة مراراً وتكراراً: "إن أكبر خطي تقترفه هو الاستهانة بقوة عدوك، اذكر هذا يا صديقي" وأيقنت أن هذه هي المهواة التي يعمل جاهداً على تجنب الوقوع فيها. وسارت الأمور على هذا المنوال حتى قال لي في صباح أحد الأيام:

– سنذهب اليوم لمقابلة وزير الداخلية فتجمل.

– إن هذا لعجيب. هل استدعاك ليعهد إليك ببعض المهام؟

– بل المقابلة إجابة لطلبي، وإنك لتعلم أن رئيس وزراء "فرنسا" السيد "ديجار دو" في "لندن" الآن، وقد دبر وزير الداخلية أن يشهد اجتماعنا الصغير هذا الصباح. واستقبلنا "الرايت" أو "نورابيل سدني كروذر" وزير الداخلية بما اشتهر به من الرقة والظرف، وكان يقف وراءه على مقربة من الموقد رجل طويل القامة، نحيف البنية، له لحية سوداء مدببة، ووجه يشف عن الحساسية وسرعة التأثر، وقال له "كروذر":

– اسمع لي يا سيد "ديجار دو" بأن أقدم إليك السيد "هركيول بوارو" الذي قد

تكون سمعت به. فالتحني رئيس وزراء "فرنسا" مصافحاً وقال:

– لقد سمعت حقاً بالسيد "بوارو"، ومن ذا الذي لم يسمع به؟ وقال "بوارو"

وهو ينحني وقد تألقت وجهه سروراً:

– إنك لكرّيم الاخلاق يا سيدي. وانبعث من ركن قصي بجانب أحد دواليب

الكتب صوت يقول:

– ألا توجد كلمة تحية لصديق قديم؟ وكان المتكلم صديقنا القديم السيد

"أجلز"، فصافحه "بوارو" في حرارة وشوق، وقال "كروذر":

– والآن يا سيد "بوارو" ها نحن في خدمتك، وقد فهمت أنك تريد الإفضاء إلينا ببيان عظيم الخطورة.

– إن الأمر كذلك يا سيدي، ففي العالم اليوم هيئة إجرامية واسعة النطاق، يهيمن عليها أربعة أشخاص يدعون "الأربعة العظام"، ورقم 1 صيني يسمى "لي تشانج ين" ورقم 2 ثري أمريكي كثير الملايين هو "أيب رايلاند"، ورقم 3 سيدة فرنسية، أما رقم 4 فلدي كل ما يحملني على الاعتقاد بأنه ممثل إنجليزي مغمور يسمى "كلود داريل"، وقد تحالف هؤلاء الأربعة على هدم النظام الاجتماعي الحاضر، ويستبدلون به نظاماً فوضوياً يسيطرون عليه سيطرة دكتاتورية. فغمغم رئيس وزراء "فرنسا":

– من العسير تصديق هذا... أيشترك "رايلاند" في شيء من هذا القبيل؟ لا ريب في أن الفكرة محض وهم وخيال...

– أعرنى سمعك يا سيدي ريثما أقص عليك بعض أعمال "الأربعة العظام"... وكانت قصة "بوارو" رائعة تخلب لب السامع وهو يروي حوادث مغامراتنا ونجاتنا ولما فرغ من ذلك نظر السيد "ديجاردو" إلى السيد "كروفر" دون أن يتكلم فقال الوزير:

– أجل يا سيد "ديجاردو"... أظن أنه لا مناص لنا من الاعتراف بوجود "الأربعة العظام"... ولقد سخر رجال "سكوتلانديارد" من ذلك أول الأمر، ولكنهم اضطروا أخيراً إلى التسليم بأن السيد "بوارو" على صواب في الكثير من آرائه... وموضع التساؤل هو المدى الذي تمتد إليه أغراض هذه العصاة... وإني لأميل إلى الظن بأن السيد "بوارو" يبالغ في ذلك بعض المبالغة... فبسط أمامهم "بوارو" عشر نقاط بارزة واضحة لست في حل حتى الآن من إذاعتها على القراء، ولكنها تناولت ما حل بالغواصات من النكبات في شهر معين، كما تناولت حوادث الطائرات والهبوط الإجباري... وكانت هذه الأحداث جميعها من تدبير "الأربعة العظام" فيما قال "بوارو"، وهي دليل قاطع على أنهم يملكون أسراراً علمية شتى

يجهلها العالم أجمع. وسأله رئيس وزراء "فرنسا":

- لقد قلت إن العضو الثالث بالعصابة سيدة فرنسية... فهل تعرف شيئا عن اسمها؟

- إنه اسم مشهور يا سيدي تحيط به هالة من المجد والشرف... فليس رقم 3 إلا السيدة "أوليفيه" الذائعة الصيت. وما إن تفوه صاحبي باسم العالمة الفرنسية ذات الشهرة العالمية حتى قفز رئيس الوزراء الفرنسي عن مقعده مهتاجا محتقن الوجه وهو يهتف:

- السيدة "أوليفيه"... محال...! هذا سخف... إنها إهانة صارخة! وهز "بوارو" رأسه في دعة دون أن يتكلم... وراح "ديجارو" يرنو إليه ذاهلا مستغرقا، ثم انجلت عنه سورة الغضب وقال:

- إن السيد "بوارو" رجل عظيم، لكن الرجل العظيم له أوهامه وتخيلاته، وهو يلتمس المؤامرات الموهومة في الأوساط الرفيعة... ألا تتفق معي يا سيد "كروذر"؟ ولاذ وزير الداخلية بالصمت هنيهة ثم قال:

- لست أدري في الحق... لقد كنت ولا أزال عظيم الثقة بصدق نظر السيد "بوارو"، لكن ما يقوله عسير التصديق... وعاد السيد "ديجارو" قائلا:

- ثم "لي تشانج ين" هذا... من الذي سمع باسمه؟ فقال السيد "إنجلز" على غير انتظار:

- أنا... وشخص إليه رئيس الوزراء الفرنسي ببصره، فأجابه السيد "إنجلز" على نظراته الثابتة بمثلها.. وقال وزير الداخلية:

- إن السيد "إنجلز" هو أعظم حجة عندنا في الأحوال الداخلية بـ "الصين"... فقال السيد "ديجارو":

- هل سمعت بخبر "لي تشانج ين" هذا؟

- لقد كنت أعتقد أنني أنا الرجل الوحيد الذي سمع به في "إنجلترا" حتى زارني السيد "بوارو"... لا تخدع نفسك يا سيد "ديجارو"، فليس في "الصين" اليوم سوى رجل واحد يعمل له حساب... هو "لي تشانج ين"... ولعله -ولا

أجزم بذلك - صاحب أكبر عقلية في العالم اليوم... وجلس السيد "ديجار دو" كما أذهله ما سمع... ثم استرد ثباته وقال:

- قد يكون شيء من الصواب فيما تقول يا سيد "بوارو"... أما فيما يختص بالسيدة "أوليفييه" فإنك مخطئ أشد الخطأ... إنها ابنة بارة لـ "فرنسا"، وهي مخلصة لقضية العلم دون سواها. وهز "بوارو" كتفيه دون أن يجيب، ثم نهض بعد قليل في جد واتزان وقال:

- هذا كل ما لديّ أيها السادة... فما أردت سوى تحذيركم وما كنت أجهل أنني قد أخفق في إقناعكم، ولكنكم الآن في جانب الحيلة والحذر على الأقل، ولقد يجد من الأحداث ما يدعم إيمانكم الواهن المتصدع... ولم يكن أمامي بد من الكلام... فقد لا يتاح لي ذلك فيما بعد، فسأله "كروذر" وقد أثرت في نفسه لهجته:

- ماذا تعني؟

- أعني يا سيدي أن حياتي لم تعد تساوي فتيلة بعد أن نفذت إلى شخصية رقم 4 فسيسمى جاهدا إلى هلاكي، وما سمي "المدمر" عبثا، إني أحبيكم أيها السادة... أما أنت يا سيد "كروذر" فإني أعهد إليك بهذا المفتاح وهذه الرسالة المختومة، فقد جمعت مذكراتي في هذه القضية، وضممت إليها آرائي في كيفية مواجهة هذا الخطر الذي قد تهب على العالم أعاصيره في أي يوم، وأودعت هذه الوثائق جميعا بإحدى خزائن الودائع، فإذا مت فإني أفوض إليك يا سيد "كروذر" الاستيلاء على هذه الأوراق والانتفاع بها حسبما يروقك، والآن طاب نهاركم أيها السادة... انحنى "ديجار دو" في فتور، أما "كروذر" فقد هب واقفا ومد يده وهو يقول:

- لقد ضممتني إلى صفك يا سيد "بوارو"... ومهما يكن من غرابة ما أفضيت به إلينا فإني مقتنع بكل ما قلت تمام الاقتناع... وانصرف معنا السيد "أنجلز" فقال "بوارو":

- لم يخب أُملي في هذا الاجتماع ... وما كنت أطمع في إقناع "ديجارو"، ولكنني قد ضمنت على الأقل أنني إذا قضيت نحبي فلن يموت معي ما أعرفه، لقد ضمنت إلى صفنا رجلا أو رجلين، وليس هذا بالكسب القليل ... فقال "أنجلز":
- إنني معك كما تعلم، وسأعود إلى "الصين" في أسرع ما أستطيع ...
- هل ترى من الحكمة أن تفعل ذلك؟

- كلا.. ولكنه أمر لا بد منه ... فإن المرء يحب أن يبذل كل ما في مقدوره ...
فهتف "بوارو" متأثرا:

- إنك لرجل باسل ... ولو لم نكن في الشارع لعانقتك ... وبدت على "أنجلز" دلائل الرضا والارتياح وهو يقول:
- لا اظن أنني أتعرض في "الصين" لخطر أشد مما يحيق بك هنا في "لندن" ...
فقال "بوارو":

- قد يكون هذا صحيحا، وكل ما أرجوه ألا يتمكنوا من قتل صديقي "هاستنجز" أيضا، فإن هذا يزعجني أشد الإزعاج ... وقطعت عليهما هذا الحديث الممتع السار بقولي:

- إنه ليس في نيتي أن أقتل. وسرعان ما افترق عنا "أنجلز" ... وسرنا قليلا صامتين ثم قطع "بوارو" حبل الصمت بملاحظة أثارت بي أشد العجب، فقد قال:
- إني لأرى أنه يحسن بي أن أشرك أخي في هذا الأمر ... فهتف مبهورا:

- أخوك؟ لم أكن لأعلم أن لك أخا!

- إن شأنك لعجيب يا "هاستنجز"، ألا تعلم أن لجميع رجال البوليس السري النابهين إخوة لولا ما فطروا عليه من الكسل لاقتعدوا غارب الشهرة والنجاح؟
ولـ "بوارو" في بعض الأحوال أسلوب لا يدري السامع معه هل يجد أم يمزح، فسألته وأنا في حيرة من الأمر:

- وما اسم أخيك؟ أجنبي بجد:

- "أكيل بوارو"، وهو يقيم على مقربة من "سبا" في "بلجيكا".

- وما مهنته؟

— إنه لا يعمل شيئا، وقد قلت إنه كسول يؤثر الراحة والعافية... بيد أنه ليس دوني مقدرة وذكاء... وحسبه هذا تعريفا.

— وهل يشبهك؟

— أجل، وإن لم يكن في مثل وسامتي، ثم إنه يحلق شاربه.

— أهو أكبر منك سنًا أم أصغر؟

— لقد شاءت المقادير أن يولد معي في يوم واحد... فهتفت:

— أتوأم هو؟

— نعم... لكن ها نحن قد بلغنا المنزل، فلنعكف في الحال على البحث في قضية عقد "الدوقة"...

بيد أنه كان مقدرا لقضية عقد "الدوقة" أن تظل في الانتظار قليلا، فقد طالعتنا قضية تختلف عنها كل الاختلاف، إذ أخبرتنا السيدة "بيرسون" بأن إحدى المرضات جاءت في أثناء غيابنا، وأنها في انتظار السيد "بوارو". وألفيناها جالسة على المقعد الكبير المواجه للشرفة... وكانت امرأة نصفاء، بشوشة الوجه، ترتدي ثوبا أزرق من الثياب الرسمية بالمستشفيات... وأبدت غير قليل من التردد في الإفضاء إلينا بما جاءت من أجله، وراح "بوارو" يستحثها ويشجعها فقالت:

— إنني لم أصادف في حياتي شيئا كهذا على طول عهدي بأعمال التمريض... وقد ندبتني مؤسسة "لارك" للذهاب إلى "هيرتفوردشير" للعناية بشيخ هناك يسمى السيد "ثمبلتون"... وألفيت البيت تسوده الدعة والهدوء، وأهله على أكبر حظ من الدمائية وحسن المعاشرة... والسيدة "ثمبلتون" أصغر من زوجها كثيرا، وله ابن من زوجته الأولى... ولا يوجد كثير من الود بين السيدة "ثمبلتون" وابن زوجها... وهو ليس شابا عاديا... ولئن لم يكن أبله تماما فإنه بلا ريب قاصر العقل خامد القريحة إلى حد بعيد... أما مرض السيد "ثمبلتون" فقد بدا لي من أول وهلة غامضا عجيبا، فإن الشيخ ليبدو في بعض الأحيان سليما تام الصحة، ثم تنتابه على حين فجأة نوبة شديدة من نوبات الألم والقيء... بيد أن الطبيب لم يكن ليرى في ذلك ما يستوجب الملاحظة، ولم يكن من شأني الفحص والتعليل،

ولكنني مع ذلك لم أملك نفسي من التفكير في هذه الحالة العجيبة، ثم... وتوقفت المريضة عن الكلام وقد صبغ وجهها الاحمرار... فقال "بوارو" يستحثها:

– هل وقع ما أثار ريبك وشكوكك؟

– أجل ووجدت الخدم يتغامزون ويهمسون كذلك ولعل الأمر يشمل السيدة "ثمبلتون" والطبيب، فقد كانوا يتهايمسون ويهمسون... ثم رأيتهما معا ذات يوم بعيني رأسي في الحديقة... وأمسكت زائرتنا عن الكلام وقد بدا في محياها الألم للفضيلة المكلمة... ثم استطردت:

– وأخذت النوبات تزداد شدة، والدكتور "تريفز" لا يفتأ يقول إنها طبيعية تماما بالنسبة إلى حالة المريض وإنه لا يمكن أن يعيش طويلا، على أنني لم أر ما يشبه ذلك في خلال اختباراتي الطويلة، ولاح لي أنها حالة من حالات... فقال "بوارو" يستحثها على الإتمام:

– حالة من حالات التسمم بالزرنيخ؟ وأومأت المريضة بالموافقة ثم قالت:

– إن المريض قال شيئا غريبا "سيقضون علي"، هم الأربعة! فابتدروا "بوارو" قائلا:

– إيه؟

– هذه كلماته بنصها يا سيد "بوارو"، وكان ذلك الوقت يكابد ألما ممضا ولا يفقه ما يقول...

– وماذا تظنين أنه كان يعني بقوله "هم الأربعة"؟

– لا أعرف يا سيد "بوارو"... وقد خلت أنه يعني زوجته وولده والطبيب وربما آنسة "كلارك" وصيفة السيدة "ثمبلتون"...

– تماما... تماما... والطعام؟ ألم يكن بوسعه الاحتياط من ناحيته...؟

– إنني أفعل دائما كل ما بوسعي، لكن السيدة "ثمبلتون" تصر أحيانا على إحضار الطعام بنفسها. وأخرجت زجاجة بها سائل قائم أعطتها لـ "بوارو" فقال:

– أحسنت صنعا يا آنسة، وسنرسل هذا لتحليله في الحال... وإذا عدت بعد

ساعة فاطن أنه سيكون بوسعنا البت في شكوكك بالنفي أو الإثبات ... وبعد أن وقف من زائرنا على اسمها ومؤهلاتها شيعها إلى الباب، ثم أرسل الزجاجة إلى التحليل، وعكف على بحث ما أدلت به الممرضة من البيانات عن نفسها ... وأبدت عجبي من ذلك فقال:

- كلا... كلا... إني لأحسن صنعا بالتزام جانب الحذر ولا تنس أن "الأربعة العظام" في أثرتنا... على أنه سرعان ما استيقن أن ثمة ممرضة باسم "مابل بالمر" تنتمي إلى مؤسسة "لارك" وأنها نذبت للعناية بالمريض الذي أشارت إليه. وعادت الممرضة "مابل بالمر" في الموعد المضروب لها، ولم نلبث أن تلقينا نتيجة التحليل، وكان الحساء خاليا من الزرنيخ، لكن به مادة الأنتيمون... قال "بوارو": - سنسرع إلى "هيرتفوردشير"، وأسأل الله ألا نصل بعد فوات الأوان...

وبلغنا "المستيد" كما كان البيت يسمى متأخرين، وترك "بوارو" الممرضة تسبقنا إليه بعشرين دقيقة حتى لا يثير وصولنا معا شكوك أهل المنزل... واستقبلتنا السيدة "ثمبلتون"، وهي امرأة طويلة القامة، قوية البنية، قلقة النظرات ولاحظت أنها شهقت بشدة عندما ذكر "بوارو" لها اسمه، بيد أنها كانت تجيب عن أسئلته عن الخادمة دون تردد، ثم أراد "بوارو" جس نبضها، فأفاض في قصة طويلة عن زوجة دست السم لزوجها وهو لا يحول بصره في أثناء ذلك عن وجهها، فعراها من الاضطراب ما أجهدت نفسها عبثا في كتمانها، ولم نلبث أن استأذنت بكلمات غامضة وأسرعت بمغادرة الغرفة، ولم نلبث وحدنا غير قليل... وسرعان ما أقبل إلينا رجل أربعة يلبس نظارة، وقدم إلينا نفسه قائلاً:

- أنا الدكتور "تريفز"، وقد طلبت السيدة "ثمبلتون" أن أعذر لكم عنها، فإنها ليست على ما يرام... إنها تعاني توترا عصبياً من أثر القلق على زوجها. ودلف إلى الغرفة شاب مضطرب الخطى، يشف منظره عن البلاهة والحمول، وقد ارتفع حاجباه كأنه في دهشة أبدية لا يفيق من غمرتها، وراح يتنسم في غباء وهو يصافحنا فلم يخالفنا شك في أنه "الابن الأبله". انتقلنا جميعا بعد ذلك إلى قاعة لتناول العشاء، واستأذن الدكتور "تريفز" لحظة، وما كاد الغلام يخلو بنا حتى

تغيرت هيئته تغيراً عجبياً، ومال إلى "بوارو" قائلاً:

- إنك جئت من أجل أبي... أعرف ذلك كما أعرف كثيراً من الأشياء، وإن لم يخطر هذا بباليهم... وسوف تسر أُمي عندما يموت أبي وتتمكن من الاقتران بالدكتور "تريفز"... إنها ليست أُمي الحقيقية كما تعلم، وهي تريد موت أبي...

كان حديث الفتى مريعاً هائلاً، لكن الطبيب عاد قبل أن يتسع الوقت أمام "بوارو" للجواب. ثم مال "بوارو" فجأة وهو يثن، وتقلصت عضلات وجهه ألماً... وهتف الطبيب:

- ماذا أصابك يا سيدي العزيز؟

- نوبه مفاجئة كثيراً ما تعتادني... كلا، كلا... لست محتاجاً إلى مساعدتك يا دكتور، إنما أرجو أن أضطجع بإحدى غرف النوم.

وأجيب طلبه في الحال، فصعدت معه إلى الطابق الثاني حيث تهاوى على الفراش وهو يثن أنينا شديداً... وارتعت لذلك في أول الأمر ولكني لم ألث أن أدركت أن "بوارو" يتصنع المرض لكي يكون أقرب ما يستطيع إلى غرفة المريض... فلم يدهشني أن أراه يثب من السرير حالماً أصبحنا وحدنا بالغرفة وهو يهتف:

- أسرع يا "هاستنجز" إلى النافذة... إن في الخارج أغصاناً متسلقة على الجدار وبوسعنا الهبوط بواسطتها قبل أن يفتنوا إلينا...

- نهبط؟

- نعم... يجب أن نغادر هذا البيت في الحال... هل لاحظت في أثناء العشاء؟
- الدكتور؟

- كلا... بل "ثمبلتون" الصغير... إنه كان يعيث بالخبز، ولعلك لا تزال تذكر ما أخبرتنا به "فلوسي مونرو" قبيل موتها من أن "كلود داريل" من عاداته التقاط الفئات من المائدة بقطعة من الخبز، هذه مؤامرة واسعة النطاق يا "هاستنجز"، وهذا الشاب الأبله هو عدونا الأكبر... رقم 4... أسرع.

ولم أحاول الجدل والمناقشة، وهبطنا بواسطة الأغصان المتسلقة الممتدة على

الجدار بكل ما استطعنا من الهدوء وما إن بلغنا الأرض حتى انطلقنا نحو المحطة متحاشين الشوارع المطروقة؛ واستطعنا إدراك القطار الذي يغادر البلدة في الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والثلاثين ليبلغ "لندن" حوالي الساعة الحادية عشرة، وقال "بوارو" عندما تحرك بنا القطار:

- لست أدري عدد المشتركين في هذه المكيدة ولكنني أعتقد أن أسرة "ثمبلتون" المزعومة ليست إلا فئة من أعوان "الأربعة العظام". واستغرق "بوارو" في تفكير عميق.. فلما وصلنا إلى البيت استوقفتني عند باب غرفة الجلوس قائلاً:

- خذ حذرك يا "هاستنجز". إن الشكوك تساورني فدعني أدخل أولاً... ولف يده بقطعة من الصوف قبل أن يضغط على زر الكهرباء وأخذ يطوف بالغرفة في حذر متأهبا لكل خطر، وقلت متبرها:

- إن كل شيء على ما يرام يا "بوارو"... أجاب:

- ذلك أدنى إلى الرجحان يا صديقي... لكن دعني أتأكد... قلت:

- هراء... سأشعل الموقد وأدخن غليونني... ما هذا؟ لقد كنت آخر من تناول علبة الثقاب ولم تردها إلى مكانها... وهو أمر طالما عنفتني عليه. ومددت يدي نحو علبة الثقاب... وسمعت صيحة التحذير التي انطلقت من "بوارو"... ورأيتة يثب إلى الأمام نحوي... لكن يدي مست علبة الثقاب... وعند ذلك اندلع لهيب أزرق، وسمعت دويًا يصم الأذان، ثم غشي كل ما حولي ظلام دامس... ولما ثبت إلى الرشد ألفيت صديقنا الدكتور "ريدجواي" منحنيًا فوقني، ولاحت في محياه دلائل الرضا حين فتحت عيني... وقال متلطفًا:

- لا تجهد نفسك ولا تأت بحركة... إنك بخير... لقد وقع حادث كما

تعلم... وغمغمت في ضعف:

- و"بوارو"؟ وعبثا حاول الطبيب التهرب من الجواب فقال:

- لقد نجوت بمعجزة... أما "بوارو" فلم يقدر له ذلك... فصحت من فؤاد

ملتاغ:

- إنه لم يمت؟ وأطرق الدكتور "ريدجواي" إلى الأرض وقد غلبه التأثر.

وجاهدت جهاد اليأس حتى استويت جالسا وقلت:

- لئن مات "بوارو" فإن روحه حية خالدة، سأواصل مهمته، الموت لـ "الأربعة العظام".

- 14 -

مات "بوارو" الرجل الفذ العظيم! ولقد عبثت يد شيطانية أثيمة بعلبة الثقاب وحولتها عن موضعها، وكان من المحقق أن يرى ذلك "بوارو" المولع بالترتيب والنظام فيبادر إلى تصحيح وضعها ويحدث الانفجار، لكن كان من المقدر أن أسبقه إلى مس العلبة، فأكون السبب المباشر في مقتل صديقي العزيز، وقد ظل هذا الخاطر مصدر ندم لا يفتأ ينهش فؤادي نهشاً، لم تعد لي من مهمة في الحياة سوى الانتقام لصديقي وتعقب "الأربعة العظام" بلا هوادة حتى أظفر بهم وأقضي عليهم. وانقضى شهر كامل قبل أن أعافى تماماً من آثار ذلك الحادث المشؤوم، فطلبت مقابلة وزير الداخلية، وأذن لي بذلك، ولما أفضيت إلى السيد "كروذر" بما عقدت عليه عزمي، وعرضت عليه خدماتي لمكافحة تلك العصابة الجهنمية، رفضها في رقة وأدب، وقال إن جميع الأوراق التي تركها المرحوم السيد "بوارو" قد أصبحت تحت يده، وأنه سيعمل على الحيلولة دون وقوع الخطر الذي نخشاه، وأردف هذا الرفض بالنصح لي بالذهاب إلى "أمريكا الجنوبية".

وأظن أنه كان يخلق بي أن أصف جنازة "بوارو" في حينها، فقد كان مأتما مهيباً مؤثراً، وكان عدد أكاليل الزهر التي أرسلت يفوق كل ما يخطر بالبال، وقد جاءت من العظماء والمغمورين على السواء، فكانت أصدق دليل على المنزلة التي أحرزها صديقي الراحل في البلد الذي اتخذه وطناً ثانياً، أما أنا فقد نال مني الحزن والأسى كل منال عندما وقفت بجانب جدته أستعرض في خاطري جميع ما خضنا غماره من المخاطر والأهوال، وما نعمنا به من أيام السعادة والصفو...

وما وافي شهر أيار (مايو) حتى كنت قد رسمت خطتي للهجوم ولم أر خيراً من مواصلة طريقة "بوارو" بالإعلان في عدد من الصحف الصباحية عن الحاجة إلى معلومات عن "كلود داريل" وقد كنت جالسا ذات يوم بمطعم صغير في "سوهو"

أستعرض نتائج إعلاني إذ لحت في قسم آخر من الصحيفة نبأ هالتي وأزعجني، فقد روى اختفاء السيد "جون أنجلز" بكيفية غامضة من الباخرة "شنغهاي" بعد إبحارها من ميناء "مارسيليا" بقليل، ومع أن الجو كان هادئاً لنا فإنه يخشى أن يكون ذلك السيد قد سقط من سطح السفينة فابتلعه اليم، وانتهى النبأ بالإشارة إلى خدمة السيد "أنجلز" الطويلة المجيدة في "الصين".

كدت أصعق من هذا النبأ، وأدركت أن السيد "أنجلز" المسكين لم يمت قضاء وقدرا بل قتلته العصابة الرهيبة الملعونة، وبينما أنا أفكر في هذا الحادث الأليم مشئت البال استرعت نظري غرابة مسلك الرجل الجالس أمامي والذي لم أعره قبل ذلك التفاتاً، فلقد انحنى إلى الأمام وأخذ يساعدني في نشر الملح على طعامي، ولكنه نشر منه أربع كومات متفرقات على حافة صحفتي وهو يقول:

- معذرة فإنهم يقولون إن من ساعد غريباً في نشر الملح على طعامه جلب عليه التحس والتكد، ولكنني أرجو ألا يحدث شيء وأن تسلك جادة الحكمة والعقل. وما كان معنى هذه الإشارة ليخفي عليّ، فأدركت من فوري أن الرجل الجالس أمامي ليس إلا رقم 4، وإن لم يكن هناك وجه من أوجه الشبه بينه وبين الشاب الأبله "ثمبلتون"، أو الخادم "جيمس"، أو غيرهما من الشخصيات التي التقينا به فيها. وتلفت حولي متردداً فيما أفعل، فقرأ ما يجول في خاطري وقال مبتسماً:

- لا أنصح لك بذلك فإن خط رجعتي مأمون، إن أفكارك على شيء من السذاجة يا كابتن "هاستنجز". فهتفت وأنا أكاد أختنق من الغيظ:

- أيها الشيطان... أيها الشيطان الماردا!

- ما أسرعك إلى الغضب والانفعال، لقد كان صديقك المرحوم المأسوف عليه خليقاً بأن يخبرك بأن الهدوء والثبات أكبر عون لصاحبهما.

- اتجرؤ على ذكر الرجل الذي قتلته بنذالة؟ أتأتي إلى هنا... فقاطعني قائلاً:

- لقد جئت إلى هنا لغاية سلمية نبيلة، جئت أنصح لك بالإياب إلى "أمريكا الجنوبية"، فإذا فعلت كان في ذلك نهاية الأمر فيما يختص بـ "الأربعة العظام". وضحكت وأنا أقول ساخراً:

– وإذا أبيت أن أطيع أمركم المستبد؟

– من العسير أن تدعوه أمراً، والآخرى بك أن تسميه... إنذاراً. وكان في صوته وعيد صامت، ثم أردف قائلاً:

– إنه الإنذار الأول، ويحسن بك ألا تتجاهله. وقبل أن أفطن إلى ما يفعل نهض وانسل مسرعاً نحو الباب فبادرت إلى اللحاق به لكن رجلاً بدينا ضخماً الجثة اعترض سبيلي وهو في طريقه إلى إحدى الموائد، ولما تخلصت منه كان خصمي قد بلغ الباب، ثم اصطدم بي على حين فجأة أحد الخدم وهوت الصحيفة التي يحملها إلى الأرض، فما كدت أفرغ من هذه العقبة الجديدة حتى كان خصمي قد اختفى، وأسرت إلى الباب ولكنني لم أر له أثراً، وأفاض الخادم في الاعتذار، ورأيت الرجل البدين جالساً إلى مائدته في دعة وهدوء، ولكنني لم أصدق أن هذين الحادثين وقعا بمحض المصادفة والاتفاق، وأيقنت أن أعوان "الأربعة العظام" منبثون في كل مكان. وفي ذات يوم دق جرس التليفون فتناولت السماعة وأجابني صوت يقول:

– مستشفى "سنت جايلز"، عندنا هنا رجل صيني أصيب بطعنة في الشارع وحمل إلى المستشفى ولا يمكن أن يعيش طويلاً، وقد اتصلنا بك لأننا وجدنا بجيبه ورقة عليها اسمك وعنوانك.

ووعدت بالذهاب إلى المستشفى في الحال وأنا في أشد العجب من هذا الحادث الغريب، ولقد خامرني الريب وأنا في الطريق إلى المستشفى، وخشيت أن يكون الأمر حباله نصبها لي "الأربعة العظام"، فإن أصعب "لي تشانج ين" في كل مكان يوجد به أحد من أبناء "الصين"، على أنني لم أر في الذهاب إلى المستشفى ضيراً. ولما بلغت المستشفى اقتادوني في الحال إلى الرجل المصاب وكان جامداً لا حراك به وهو مطبق العينين، ولولا ما يتردد في صدره من الأنفاس الخافتة لما شككت في موته، وقال لي طبيب واقف بجانب السرير ويده على نبض المريض:

– إنه من القبر قاب قوسين أو أدنى، هل تعرفه؟ فهزرت رأسي قائلاً:

– لم يقع عليه بصري قبل اليوم.

– ما معنى وجود اسمك وعنوانك معه إذن؟

– لست أعلم بهذا منك .

– هذا عجيب ، لقد كان فيما يدل ما معه من الأوراق خادما لرجل يسمى "أنجلز" وهو موظف مدني متقاعد . وانتفضت عند سماع اسم "أنجلز" فقال الطبيب :

– إنك تعرفه . . . اليس كذلك ؟

خادم "أنجلز" ! إذن فقد أبصرته من قبل ، وإن لم يكن بوسعي التمييز بين صيني وصيني ، ولا ريب أنه كان مع سيده في رحلته إلى "الصين" ، فلما وقعت الكارثة قفل عائدا إلى "إنجلترا" ، ولعله يحمل رسالة إليّ لأبد من وقوفي عليها . وقلت للطبيب :

– هل يستطيع الكلام ؟ لقد كان السيد "أنجلز" صديقا قديماً ، وقد يكون هذا الرجل المسكين يحمل إليّ رسالة منه .

– إني أشك في قدرته على الكلام ، فقد نزف كثيراً من دمه ، وبوسعي بالتأكيد أن أعطيه منشطا ، ولكننا فعلنا كل ما استطعناه في هذا السبيل .

بيد أن الطبيب حقن المصاب حقنة تحت الجلد ، ومكثت بجانب السرير أترقب كلمة أو إشارة تنير أمامي السبيل ، بيد أن الدقائق أخذت تمضي سراعاً دون أن أظفر بما أريد ثم ساورني الريب فجأة ، ألا يمكن أن يكون هذا الصيني قد زعم أنه خادم "أنجلز" كذبا وانتحالا ، وهو في الحقيقة من أعوان "الأربعة العظام" ؟ ألا يمكن أن يكون الأمر حيلة لهلاكه ؟ ألم أقرأ ذات مرة أن الكهنة الصينيين يستطيعون إحداث جميع مظاهر الموت ؟ وهل يستبعد أن يكون لدى "لي تشانج ين" جماعة من ذوي التعصب والهوس الديني الذين لا يحجمون عن التضحية بأرواحهم تلبية لأمره وخدمة لأغراضه ومقاصده ، وما إن سنح هذا الخاطر لي حتى تحرك الرجل في فراشه وفتح عينيه ، وراح يشخص إليّ ببصره كأنه يحاول الكلام . وانحنيت فوقه ، ولكنه أخذ يخرج أصواتا متقطعة مبهمة ، ثم بدا لي أنه يقول "لارجو هاندل" فسألته :

– "لارجو هاندل" ؟ واختلج جفنا الرجل كأنه يقول "نعم" ، وأضاف إلى ذلك

كلمة إيطالية هي "كاروتزو" ثم غمغم بكلمات إيطالية مبهمة وهمدت حركته إذ فارق الحياة. وغادرت المستشفى وأنا في أشد حيرة من أمر هذا الصيني الذي يتكلم بالإيطالية، وكان أدنى إلى العقل والمنطق أن يتكلم بالإنجليزية إذا كان خادم "أنجلز" حقاً. وعدت إلى البيت وولجت غرفتي فالفيت على المنضدة رسالة في انتظاري، وفضضت غلافها دون اكتراث ولكنني لم أكد أقرأها حتى جمدت في مكاني مبهوتا، فقد كانت صادرة من مكتب بعض الحمامين، وهي كما يلي :

« سيدي العزيز - طبقا لتعليمات موكلنا المرحوم "هركيول بوارو" نرسل إليك مع هذا رسالة تركها لنا قبل موته بأسبوع، وأوصى بإرسالها إليك في تاريخ معين بعد وفاته - المخلصون... إلخ ». وأخذت أقلب الرسالة المرسلة معها في وجوم وأسى، فقد كان العنوان مسطرا على غلافها بخط صديقي "بوارو" الذي أعرفه حق المعرفة، وفضضتها أخيرا فقرأت ما يلي :

« صديقي العزيز - عندما تقرأ هذه السطور سأكون في عالم غير عالمكم، فلا تذرف عليّ الدمع السخين بل نفذ أوامري، يجب أن تعود إلى "أمريكا الجنوبية" حالما تصلك هذه الرسالة، ولا آمرك بهذا الرحيل استجابة لعاطفة، بل هو ضرورة لا مناص منها، هو جزء من خطة "هركيول بوارو" ولا أجد حاجة إلى التزيد في الإيضاح لرجل لبيب في ذكاء صديقي "هاستنجز"، ليسقط "الأربعة العظام" أحبيك يا صديقي من وراء القبر "هركيول بوارو" » .

تلوت هذا الكتاب العجيب مشنى وثلاث ورباع، فرأيت أن ذلك الرجل الفذ لم يقو الموت على هدم خططه وجهوده، وأن عليّ أن أكون اليد المنفذة بينما يظل "بوارو" الرأس المفكر من عالم الخلودا وبادرت إلى تنفيذ أمره واثقا بأنني سأجد في "أمريكا الجنوبية" مزيدا من التعليمات وكان البحر هادئا، والريح رخاء لينة، وأخذت بحظ مما يتلهم به المسافرين من ضروب التسلية والمتع ثم آويت إلى فراشي واستغرقت في نوم عميق. ولم ألبث أن استيقظت من النوم وأنا أشعر بمن يهزني هزاً عنيفاً متصلاً، فلما فتحت عيني في ذهول وتناقل ألفيت أمامي أحد ضباط الباخرة، وقال :

– الحمد لله إذ استيقظت أخيراً، أتستغرق دائماً في مثل هذا النوم العميق؟
فسألته مبهوراً:

– ماذا حدث؟ أجبني بجفاء:

– لعلك أدري مني بما حدث، لقد تلقينا تعليمات خاصة من الأميرالية بأن
نسافة معدة لحملك، وقد أرسلوا شاباً ليحل محلّك، كما أخذوا علينا العهد
جميعاً بالتزام الصمت والكتمان.

وصدعت بالأمر وأنا لا أملك نفسي من الدهشة والعجب، فانتقلت إلى النسافة
حيث لقيت أطيّب المعاملة دون أن أظفر بكلمة واحدة عن سر هذا الحادث
العجيب، وكانت أوامر القبطان تقضي بإنزالي في نقطة معينة من الشاطئ
البلجيكي ولم يكن ليعرف من الأمر كله أكثر من ذلك. ولقد خيل إليّ أنني في
حلم من الأحلام، ولكنني كنت على أتم اليقين من أن هذا بعض خطط "بوارو"،
وأن عليّ أن أتقدم في السبيل الذي رسم لي مغمض العينين، واثقاً بصديقي
الراحل. وأنزلت على الشاطئ البلجيكي حيث كانت في انتظاري سيارة انطلقت
تطوي الأرض، فتذكرت إذ ذاك أن "بوارو" سبق أن أخبرني بأن له أخاً يقيم في
"سبا" بيد أن السيارة لم تذهب إلى "سبا"، بل راحت تخترق الطرق الخشنة التي
تكتنفها المرتفعات والتلال حتى بلغنا أكمة يقوم فوقها بيت صغير أنيق.

وفتح الباب عندما هبطت من السيارة، ووقف أمامه خادم مسن انحنى لي باحترام
وقال:

– سيدي الكابتن "هاستنجز"؟ تفضل بالدخول. وتقدمني مجتازاً الردهة، ثم
فتح باباً في آخرها وتنحى جانباً لكي أدخل، وأخذت أطوف قليلاً إذ كانت الغرفة
غريبة وكان ضوء الشمس بها ساطعاً قوياً، ولم ألبث أن رأيت رجلاً فاتحاً ذراعيه
لاستقبالي، وهتفت وأنا أندفع نحوه:
– "بوارو".

– أجل... أجل، أنا هو حقاً، وليس من السهل قتل "هركيول بوارو"؟

– لكن لماذا تختفي؟

- خدعة حربية يا صديقي ...
- إننا الآن على وشك إنزال ضربتنا القاضية ...
- كلا يا "هاستنجز" ... فما كنت لتجيد دورك في جنازتي كما فعلت ...
- لكن ما أشد ما فعلت بي اللوعة والحزن ...

- 15 -

أخذنا نرقب سير الحوادث من مكمننا، و"بوارو" يتلقى كل يوم تقريراً لا أدري ما هو. وقال لي ذات يوم:

- لقد كان خوفي من أن تلقى مصرعك بسببي، أما الآن فانا مطمئن كل الاطمئنان ... وهب أنه أتيح لهم أن يكتشفوا أن الكابتن "هاستنجز" الذي هبط "أمريكا الجنوبية" دعي محتال (ولا أخالهم يكتشفون ذلك أو يرسلون إلى هناك من يعرف شخصك) فسيعتقدون أنك تحاول التواري منهم حذر كيدهم وبطشهم، ولن يبذلوا جهداً حقيقياً في اكتشاف مكمنك ... أما موتى المزعوم فهم مقتنعون به أشد الاقتناع، ولذلك سوف يمضون في تنفيذ خططهم الكبرى قدماً. فسألته بشوق:

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك البعث العظيم لـ "هركيول بوارو" ... سأظهر في الساعة الأخيرة، وألقي في صفوفهم الفوضى والاضطراب، وأحرز الفوز الأكبر بطريقتي الفذة ... قلت متذمراً:

- لكن هذا قد يعني الانتظار طويلاً ...

- إنك تتعجل الحوادث دائماً يا عزيزي "هاستنجز" ... لكن لن يطول بنا الانتظار، فإن الرجل الوحيد الذي كانوا يخشونه وهو أنا قد أزيح من طريقهم ... وهنا تذكرت ذلك الصيني الذي حضرت وفاته بمستشفى "سنت جايلز"، فسردت عليه قصته وهو مصغٍ إليّ بمزيد الجد والاهتمام. وقال أخيراً:

- خادم إنجليزي؟ وكانت الكلمات القلائل التي نطق بها باللغة الإيطالية؟ هذا عجيب .

- أجل، وهذا هو ما حدا بي إلى الشك في أنه كان خادم صديقنا "أنجلز" حقاً... والظن بأن الأمر كله حيلة من حيل "الأربعة العظام"...

- إن تفكيرك خاطئ يا "هاستنجز"... استعمل خلايا مخك الرمادية الصغيرة... لو كان الأمر مدبراً من "الأربعة العظام" كما تظن لتكلم الرجل بإنجليزية واضحة... كلا إن الرسالة كانت حقيقية... أعد على سمعي كل ما نطق به الرجل.

- كان أول ما فاه به إشارة إلى "لارجو هاندل" ثم قال كلمة تشبه "كاروتزو" وهي كلمة إيطالية معناها مركبة فيما أظن.

- ألم يقل غير ذلك؟

- لقد غمغم قبيل وفاته بكلمة تشبه أسماء النساء... "كارازيا" مثلاً ولكنني لا أظن أن لها صلة بغيرها من كلماته.

- إن "كارازيا" مهمة جداً يا "هاستنجز" وإن ظننت غير ذلك.. إنكم معشر الإنجليز قلما تعرفون علم الجغرافيا...

- الجغرافيا؟ وما علاقة الجغرافيا فيما نحن بصده؟ بيد أن "بوارو" أبى كعاداته أن يضيف إلى ذلك شيئاً... وبدا بعد هذا الحديث متهللاً منشرح الصدر كأنما أحرز شيئاً من الفوز والنجاح...

ومضت الحياة في تلك الفيلا المنزوية هادئة وادعة حتى أشرف شهر تموز (يوليو) على نهايته، وإذ ذاك تجدد حديث "الأربعة العظام"، فقد وقفت أمام البيت سيارة في صباح يوم من الأيام، ولم يكن هذا بالأمر العادي في حياتنا الهادئة فاسرعت بالخروج أستطلع الخبر، وألفيت "بوارو" يتحدث إلى شاب حسن الهيئة في مثل سني، فقدمه إليّ قائلاً:

- أقدم إليك يا "هاستنجز" الكابتن "هارفي" من إدارة مخبراتكم... وقال الشاب ضاحكاً:

- وهو اسم أخشى ألا يكون معروفا. فاجاب "بوارو" :

- إنه غير معروف إلا للواقفين على بواطن الأمور... إن معظم أصدقاء الكابتن "هارفي" ومعارفه يعتقدون أنه فتى ظريف ولكنه خامل قليل الذكاء لا يحسن غير الرقص. وضحكنا جميعا، ثم استطرد "بوارو" قائلا:

- إن من رأيك إذن أن الساعة قد حانت؟ فاجاب الكابتن "هارفي" :

- إننا واثقون بذلك يا سيدي، فقد عزلت "الصين" سياسياً بالأمس ولا يدري غير الله ما يجري في ربوعها إذ قطعت جميع وسائل المواصلات...

- لقد أسفر "لي تشانج ين" عن يده... فماذا فعل رفاقه؟

- إن "أيب رايلاند" حضر إلى "إنجلترا" في الأسبوع الماضي، ثم غادرها أمس...

- والسيدة "أوليفيه"؟

- لقد رحلت السيدة "أوليفيه" عن "باريس" في الليلة الماضية.

- إلى "إيطاليا"...؟

- أجل يا سيدي إلى "إيطاليا"... وإننا لنترجح أنهما يقصدان المكان الذي أشرت إليه، ولو أننا لا ندري كيف استطعت معرفته...

- ليس لي في ذلك من فضل، بل الفضل كله لصديقي "هاستنجز"... إنه يخفي ألمعيته وذكاءه، ولكنه ذكاء متوقد توقد شمس الضحى... ونظر إليّ "هارفي" فيما ينبغي من التقدير والإكبار، وعراني من جراء ذلك ارتباك غير قليل... وقال "بوارو" في لهجة جادة:

- إن الأحداث تسير الآن في مجراها والساعة قد حانت، فهل اتخذتم جميع الترتيبات؟

- لقد فعلنا كل ما أمرت به، ومن ورائك حكومات "إنجلترا" و"فرنسا" و"إيطاليا" تشد أزرك وتعمل باتفاق تام... قال "بوارو" :

- إنه في الحقيقة حلف جديد، ويسرني اقتناع "ديجارو" أخيراً... حسناً... سابداً أنا، أما أنت يا "هاستنجز" فستبقى هنا... إنني جاد في هذا الطلب

يا صديقي ...

على أنني ما كنت لأقبل التخلف على هذا النحو، وعبثًا حاول "بوارو" إقناعي بالبقاء ... ولم يعترف لي بسروره بما عقدت عليه عزمي إلا والقطار ينهب بنا الأرض نحو "باريس". وقال:

– إن لك دورًا مهمًا جدًا لا غنى لي عنه، لكن كان من واجبي أن ألح عليك في البقاء.

– إذن هناك خطر؟

– حيثما يكون "الأربعة العظام" يا صديقي يجثم الخطر ... ولما بلغنا "باريس" قصدنا من فورنا إلى محطة الشرق قاصدين "بولزانو" و"التيروول" الإيطالي وانتهزت غياب "هارفي" عن المركبة قليلًا وسالت "بوارو":

– لماذا قلت إن اكتشاف مكان اجتماع رجال العصاة من عملي؟ فأجاب:

– لأنه كان كذلك حقًا يا صديقي ... ولا أدري كيف تهين "لأنجلز" أن يعرفه ... ولكنه عرفه على كل حال وأرسل مع خادمه ينبئنا به ... إننا قاصدون إلى "كاربروسي" يا صديقي، واسمها الجديد عند الإيطاليين هو "لاجو دي كارييتزا" وهذه هي حقيقة الألفاظ التي فاه بها ذلك الصيني التاعس وهو يوجد بأنفاسه فترامت إليك محرفة ...

– وهل يلتقي "الأربعة العظام" بذلك المكان المنعزل؟

– بل قل إنه مقر قيادتهم العامة ... لقد صدرت إشارة البدء بالعمل، وسيتوارون عن العيون ويصدرون أوامره من معقلهم الجبلي المنيع باللاسلكي إلى أنصارهم الذين يعدون بالآلاف في كل قطر ... ومن ذلك الغار الخفي في جبل "دولوميت" سوف يخرج الطغاة الذين يحكمون العالم أجمع، أو أنهم كادوا يفعلون ذلك لو لم يتصد لهم "هركيول بوارو".

– أجاد أنت في هذا الاعتقاد يا "بوارو"؟ وماذا تفعل إذن جيوش العالم المتحضر وأسلحته ...؟

– وماذا فعلت هذه الجيوش والأسلحة في "روسيا"؟ إن الانقلاب الذي يعده

"الأربعة العظام" شبيهة بالثورة الروسية غير أنه أبعد مدى وأوسع نطاقا... ومما يزيد الأمر خطورة أن السيدة "أوليفيه" أحرزت في أبحاثها وتجاربها نجاحا لم تصل إليه من قبل... واعتقادي أنها نجحت إلى حد ما في إطلاق القوة الذرية وتذليلها لأغراضها، فبات في مقدورها أن تسلط شعاعا لاسلكيا هائلا على أية نقطة تختارها... فإذا أضفت إلى هذه العبقرية الفذة ثروة "رايلاند" التي تفوق كل حد، وعقلية "لي تشانج ين" الجبارة وهي أعظم عقلية إجرامية عرفها العالم، كان بوسعك أن تقدر الخطر الذي يحيق بالمدينة والحضارة.

لقد حملتني كلمات "بوارو" على التأمل والتفكير، فما عهدته من دعاة الرعب والفرع. وعاد إلينا "هارفي"، ومضى القطار يطوي المسافات طيا حتى بلغنا "بولزانو" حوالي منتصف النهار.

استغرقت رحلتنا بالسيارة ساعتين، وكنا في القسم الأول منها نجتاز طائفة من المرتفعات الصخرية المنحدرة، ومازلنا نعلو حيناً فآخر حتى وصلنا إلى واد خصيب يمتد بضعة كيلومترات، ثم أخذنا ندور مصعدين فلاحنا لبصارنا التلال الصخرية الجرداء وعلى سفوحها غابات الصنوبر الكثيفة، وسرنا أخيراً في طريق ملتو كثير المنحنيات وغابات الصنوبر تمتد عن أيماننا وشمائلنا حتى وقفنا أمام فندق كبير كان نهاية رحلتنا. وكانت غرفنا قد حجزت سلفاً فصعدنا إليها من فورنا بإرشاد "هارفي"، وكانت تشرف على القمم الشامخة وغابات الصنوبر المترامية على سفوح المرتفعات... وأشار إليها "بوارو" وقال بصوت منخفض:

— أهذا هو الملتقى؟ فأجاب "هارفي":

— أجل. إن هناك مكاناً يسمى "تية فيلسين" يتألف من أكام صخرية عجيبة التكوين تتخللها مسالك ضيقة ملتوية متشابكة يضل بها الهادي، والمحجر إلى يمين هذه الأكام ولكننا نرجح أن مدخله في التيه نفسه. وقال "بوارو":

— هيا بنا نزل إلى التراس يا صديقي لنستمع بضوء الشمس. قلت:

— أمن الحكمة هذا؟ فهز كتفيه دون أن يجيب. وكانت الشمس دافئة ممتعة فاحتسنا القهوة ثم صعدنا وحللنا أمتعنا القليلة... وكان "بوارو" مستغرقاً في

تفكير عميق لا ينبس بكلمة، ورايته يهز رأسه ويتنهد مرة أو مرتين. وكان قد أثار ربيبي رجل هبط معنا من القطار في "بولزانو" واستقل سيارة خاصة كانت في انتظاره... واستلفت نظري إليه أنه كان يخفي وجهه مثل "بوارو" فضلاً على أنه كان يضع على عينيه نظارة زرقاء كبيرة، فلم أكد أشك في أنه من أعوان "الأربعة العظام". ولم يقتنع "بوارو" برأيي كثيراً، ولكنني بعد أن نظرت من نافذة غرفتي أنبأته أن الرجل يتمشى على كئيب من الفندق فلم يسعه إلا الاعتراف بأن رأيي قد يكون على شيء من الصواب.

والحقت على صديقي في عدم النزول لتناول العشاء ولكنه أبى الاستماع إليّ، ودخلنا قاعة الطعام متأخرين بعض التأخير فأخذنا الخادم إلى مائدة بجانب النافذة... وبينما نحن نهم بالجلوس سمعنا صيحة دهشة وعجب وصوت تحطيم إنياء خزفي، ورأينا أن طبقاً قد انقلب على رجل جالس على المائدة المجاورة لنا. وبادر رئيس الخدم إلى الرجل وأفاض في إبداء أسفه واعتذاره، وجاءنا الخادم الذي أخطأ بالحساء فقال له "بوارو":

- إنه لحادث يؤسف له لكن الذنب ليس ذنبك.

- هل رأيت ما حدث يا سيدي؟ إن الخطأ لم يكن في الحقيقة مني... فلقد انتفض السيد وأجفل فجأة حتى خلت أنه يوشك أن يصاب بنوبة، ولم يكن في مقدوري تحاشي ما وقع... وومض في عيني "بوارو" ذلك اللهب الأخضر المعهود وقال بعد انصراف الخادم:

- أرايت يا "هاستنجز" تأثير "بوارو" حياً؟

- هل تظن... ولكنني لم أتم عبارتي إذ أحسست بيد "بوارو" على ركبتني وهو يهمس منفعلاً:

- انظر يا "هاستنجز"... انظر، انظر كيف يعبث بخبزه رقم 4. وكان الرجل الجالس بجوارنا يلتقط حقاً الفتات المتناثرة على مائدته بقطعة صغيرة من الخبز وقد

كست وجهه صفرة كصفرة الموتى، وغمغت قائلاً:

- لقد عرفك ولم يكن من الصواب نزولك إلى هنا.

— إنما تظاهرت بالموت ثلاثة أشهر يا عزيزي "هاستنجز" من أجل هذه الغاية دون سواها.

— أكنت ترمي إلى مفاجأة رقم 4؟

— لقد أردت مفاجاته في لحظة لا يجد معها بدا من عمل مرتجل سريع أو تطبيق مطامعه وآماله إلى الأبد، ونحن نمتاز عليه بأنه يعتقد أننا لا نعرفه وأنه آمن في تنكره الجديد. إلا رحم الله "فلوسي مونرو" إذ أخبرتنا بهذه العادة البسيطة.

— وما الذي تتوقع أن يحدث الآن؟

— وما الذي يمكن حدوثه؟ لقد رأى الرجل الوحيد الذي يرهبه ويخشاه يخرج من القبر فجأة بمعجزة من المعجزات في نفس اللحظة التي أضحت فيها مشروعات "الأربعة العظام" في كفة الميزان، وقد تناولت السيدة "أوليفيه" و"أيب رايلاند" طعام الغداء هنا، والمعتقد أنهما ذهبا إلى "كورتينا" ولكننا نعلم أنهما قد لاذا بمعقل العصابة. وإن رقم 4 ليسائل نفسه الآن عن مدى ما نعرفه من أمرهم، وهو لا يستطيع أن يقدم على أية مجازفة فلا بد من القضاء عليه في الحال بأي ثمن، لكن دعه يحاول القضاء على "هركيول بوارو" ! إني لعلى تمام الأبهة والاستعداد. وعند ذلك نهض الرجل وغادر القاعة فقال "بوارو" بهدوء:

— لقد ذهب لوضع خططه السريعة، هل نذهب لتناول القهوة في التراس يا صديقي؟ سأصعد لارتداء معطفي.

خرجت إلى التراس مضطرب الفكر، فما كنت لأطمئن إلى كلمات "بوارو"، حتى رأيت أننا بمان من كل سوء إذا ظللنا على قدم التأهب والاستعداد. ولحق بي "بوارو" بعد خمس دقائق وقد تلثم إلى أذنيه حذر البرد كعادته، وراح يرشف قهوته في لذة ورضا، وسرعان ما ظهر الرجل الذي كان بالمطعم فجأة وتقدم نحونا وجلس على مقعد ثالث معنا دون تردد ولا إحجام. وقال بالإنجليزية:

— أرجو ألا يكون لديكما مانع من جلوسي معكما. فاجاب "بوارو":

— كلا يا سيدي.

وتولاني القلق والاضطراب على الرغم من وجودنا في التراس بين نزلاء الفندق

الكثيرين إذ شممت رائحة الخطر، أما رقم 4 فقد أفاض في الحديث هادئاً مطمئناً كأنه سائح عاديّ. وأخذ من جيبه غليوناً وشرع في إشعاله، فأخرج "بوارو" سيجارة وضعها بين شفتيه ومال رقم 4 نحوه وفي يده عود الثقاب وقال :
- اسمح لي بإشعال سيجارتك .

وما إن تفوه بهذه الكلمات حتى أطفئت جميع الأنوار فجأة، وسمعت صوت كسر زجاج، وشممت رائحة حادة نفاذة تحت أنفي ضاقت منها أنفاسي .
لا يمكن أن أكون غبت عن الصواب أكثر من دقيقة واحدة، وعندما ثبت إلى رشدي شعرت بأنني بين رجلين يحملانني حملاً واضعين أيديهما تحت إبطي، وقد كما فمي، وكان الظلام دامساً فادركت أننا لا نزال بالفندق وإن كنا في طريقنا إلى الخارج، وكانت الأصوات ترتفع من حولي متسائلة بكل لغة معروفة عما أصاب الأنوار، ثم هبط بي الرجلان بضع درجات واجتزنا أحد ممرات البدروم ثم نفذنا إلى الخارج من باب زجاجي خلف الفندق، وإن هي إلا لحظة قصيرة حتى كنا في كنف أشجار الصنوبر الباسقة الملتفة، ولحت شبح رجل آخر في مثل حالتي فعلمت من فوري أن "بوارو" أيضاً من ضحايا هذه الضربة الجريئة . لقد فاز رقم 4 فوزاً مبيناً بفضل جراته وإقدامه، واستنتجت أنه استعمل أنبوبة مخدر كسرها تحت أنفينا، ثم انتهر فرصة الظلام وما ساد من الفوضى والاختلاط فكمنا أعوانه الذين كانوا منبئين بين نزلاء الفندق .

وليس بوسعي وصف الساعة التي تلت ذلك، فقد مضينا نشق طريقنا في قلب الغابات الكثيفة مصعدين حتى خرجنا إلى العراء على منحدر الجبل، ورأيت حولي تلالاً صخرية عجيبة الشكل فلم أشك في أنها "تية فيلسين" الذي حدثنا عنه "هارفي"، وأخذنا نسير في المسالك المتلوية المتشابكة حتى وقفنا فجأة أمام صخرة ضخمة تسد علينا الطريق، وانحنى أحد الرجال كأنه يدفع شيئاً فدارت تلك الصخرة حول نفسها دون أن تحدث صوتاً، وبدا أمامنا نفق ضيق أسرعنا فيه فلم يلبث أن انفرج وتباعد جانباه حتى أفضى بنا إلى قاعة فسيحة منقورة في الصخر يسطع فيها نور الكهرباء، وعند ذلك رفعت الكمامة عن فم كل منا، ووقف أمامنا

رقم 4 وعلى محياه ابتسامة السخرية والفوز، وأشار إلى أعوانه ففتشونا تفتيشا دقيقا وأخذوا كل ما معنا ومن بينه مسدس "بوارو" الصغير، وحز في نفسي الألم واليأس عندما رأيتهم يلقون بالمسدس على المنضدة، فقد أيقنت بالخذلان وسوء المصير. وقال رقم 4 متهمكما:

- مرحبا بك في مقر قيادة "الأربعة العظام" يا سيد "هركيول بوارو"، أكان هذا يستحق مشقة بعثك من القبر؟ ولأذ "بوارو" بالصمت ولم أجرؤ على النظر إليه. واستطرد رقم 4 قائلا:

- تعال من هنا... إن وصولك سيكون مفاجأة لأصحابي.

وأشار إلى مضيق بالجدار فنفذنا منه إلى قاعة أخرى... وكانت في نهايتها منضدة صفت أمامها أربعة مقاعد. وكان المقعد الأول خاليا وقد بسط عليه وشاح حاكم صيني، وجلس على المقعد الثاني السيد "أيب رايلاند" المليونير الأمريكي، واضطجعت في المقعد الثالث السيدة "أوليفيه" بعينيها المتقدتين ووجهها الذي يشبه وجوه الراهبات... وأخذ رقم 4 مكانه على المقعد الرابع.

كنا في حضرة "الأربعة العظام"، ولم أشعر قط بمحضر "لي تشانج ين" وطروته كما شعرت به إذ ذاك وأنا أنظر إلى المقعد الخالي... إنه في أقصى "الصين"، ولكنه يسيطر على هذه الهيئة الجهنمية ويوجهها. وأفلتت من بين شفتي السيدة "أوليفيه" صيحة خفيفة عندما وقع بصرها علينا... أما "رايلاند" فكان أثبت منها جنانا إذ لم يزد على تحريك سيجاره ورفع حاجبيه المشعثين. وقال "رايلاند" في تودة:

- إنها لمفاجأة سارة يا سيد "بوارو" فقد خدعتنا جميعا وظنناك من سكان القبور، على أن الأمر قد انقضى الآن.

وكان في صوته ما يشبه صليل الصلب البارد... ولم تقل السيدة "أوليفيه" شيئا، لكن عينيها كانتا تتألقان بذلك البريق البغيض. وأجاب "بوارو" بهدوء:

- أحييكم يا سيدتي وسادتي. وراعتني في صوته رنة لم أعهدا فالتفت إليه، وكان ساكنا رابط الجأش ولكنني أحسست إحساسا خفياً بأن فيه شيئا غير مألوف.

ثم تحركت الستائر من خلفنا وبرزت منها الكونتيسة "فيرا روساكوف". وقال رقم 4:

- آه! ها هي مساعدتنا الأمينة... هنا صديق قديم لك يا سيدتي العزيزة. واستدارت "الكونتيسة" مسرعة ولم تلبث أن هتفت مشدوهة:

- يا لله! إنه الرجل الصغير! لماذا أقحمت نفسك في هذا الأمر؟ فاجاب "بوارو" وهو ينحني أمامها:

- إنني يا سيدتي مولع بالمعارك الطاحنة مثل "نابليون" العظيم. ورأيت الشك يومض في عينيها فأشرقت الحقيقة في ذهني إن الرجل الواقف بجانبني ليس "هركيول بوارو" وإن كان يشبهه شبها يكاد يكون تاما من كل وجه... فهناك الرأس البيضاوي، والجسم القصير الممتلئ بعض الامتلاء، غير أن العينين قائمتان والشاربين المشهورين... وقطع عليّ تأملاتي صوت "الكونتيسة" وهي تخطر إلى الامام هاتفة:

- لقد خدعتم. إن هذا الرجل ليس "هركيول بوارو"!
وهتف رقم 4 معربا عن شكه في قولها فتقدمت "الكونتيسة" وجذبت شاربني "بوارو" فخرجنا في يدها وظهرت الحقيقة مجردة من كل لبس وإبهام، كان ثمة أثر جرح صغير يشوه شفة الرجل العليا ويغير هيئته تماما. وغمغم رقم 4:

- ليس "هركيول بوارو"! من يكون إذن؟ فهتفت فجأة:
- إنني أعرف الحقيقة. ولكنني لم البث أن أمسكت عن الكلام إذ خشيت عاقبة تسرعني، فقال الرجل الذي سأمضي في تسميته "بوارو":

- قل إذا شئت. إن هذا لا ضير منه الآن فقد نجحت الحيلة. فقلت متمهلا:
- إن هذا "أكيل بوارو" توهم "هركيول". وهتف رقم 4:
- محال. فقال "أكيل" في هدوء:

- لقد نجحت حيلة "هركيول" نجاحا رائعا. ووثب رقم 4 إلى الامام وهو يهتف بصوت أجش:

- هل نجحت حقاً؟ ألا تعلم أنك ستكون من الهالكين بعد دقائق؟ أجاب "أكيل" بوارو:

- أعلم ذلك، ولكنك لا تعلم أن المرء قد يكون راغباً في ابتياع النجاح بحياته، هناك رجال ضحوا بحياتهم في ميادين الحرب من أجل وطنهم، وأنا راض بالتضحية بحياتي في سبيل الإنسانية.

وبدا لي أنه كان يجب أن يؤخذ رأيي في التضحية بحياتي في سبيل الإنسانية، ولكنني تذكرت أن "بوارو" نصح لي بالتخلف فسكنت ثائرتي. وساله "رايلاند" ساخراً:

- وكيف تضحي بحياتك في سبيل الإنسانية؟

- أرى أنكم لا تفهمون خطة "بوارو" حق الفهم، ويجب أن تعلموا قبل كل شيء أن معقلكم معروف منذ عدة أشهر، وأن جميع نزلاء الفندق وموظفيه من رجال المخابرات السرية... وقد ضرب حول الجبل حصار شديد فلن تستطيعوا الهرب بحال من الأحوال، فإن "بوارو" يشرف على العمليات في الخارج وكان حذائي ملوثاً بأحد مركبات "الأنيسيد" عندما نزلت الليلة إلى التراس منتحلاً شخصية أخي، والكلاب البوليسية تقتفي الآن هذا الأثر وستقودهم إلى مدخل المعقل، وهكذا ترون أنكم مهما فعلتم بنا فإن الشبكة تضيق وتنطبق عليكم ولن تجدوا إلى الفرار سبيلاً. فضحكت السيدة "أوليفيه" فجأة وقالت:

- أنت مخطئ، فلا يزال أمامنا سبيل إلى الفرار وسنهلك أعداءنا معنا كما فعل "شمشون" قديماً، ما رأيكم أيها الأصدقاء؟ قال "رايلاند" وهو يحدق إلى "أكيل" بوارو:

- هبوا أنه كاذب؟ فهز "أكيل" كتفيه قائلاً:

- سيطلع الفجر بعد ساعة وعند ذلك يتجلى لكم صدق أقوالي ولا ريب أنهم الآن قد وصلوا إلى المدخل في "تیه فيلسين".

وما إن فرغ من قوله حتى ترامت إلينا أصوات بعيدة ودخل رجل يصيح بكلمات مضطربة غير واضحة، فوثب "رايلاند" عن مقعده وهرع إلى الخارج، وسارت

السيدة "أوليفيه" إلى نهاية القاعة وفتحت باباً لم ألاحظه من قبل، فلمحت من ورائه معملاً مجهزاً بالآلات كمعملها في "باريس"، ووثب رقم 4 كذلك وغادر القاعة ثم عاد بمسدس "بوارو" وأعطاه إلى الكونتيسة "روساكوف" قائلاً:

- ليس ثمة أي خوف من فرارهما لكن من الخير أن يكون هذا معك. ثم غادر القاعة مرة أخرى. ودنت منا "الكونتيسة" وراحت تتفرس في صاحبي طويلاً ثم قالت ساخرة:

- إنك لشديد البراعة والدهاء يا سيد "أكيل بوارو".

- فلنتحدث حديثاً عملياً يا سيدتي، وقد كان من حسن الحظ أن تركونا وحدنا. ما الثمن الذي تطلبينه؟
- لا أفهم ما تعنيه. أي ثمن؟

- إن بوسعك يا سيدتي أن تساعدنا على الفرار؛ إذ إنك تعرفين منافذ سرية من هذا المكان. فما الثمن الذي تطلبينه؟ فضحكت قائلة:

- أكثر مما تستطيع أيها الرجل الصغير! إن جميع أموال العالم لا تكفي لابتياعي!
- لم أتحدث عن المال يا سيدتي فإني رجل على شيء من الذكاء لكن لكل امرئ ثمنه كما يقولون، وإني لأعرض عليك أمنية قلبك مقابل الحياة والحرية.
- إذن فأنت ساحر!

- لك أن تسميني كذلك إذا شئت. وتحولت "الكونتيسة" عن لهجتها الساخرة وقالت في حزن:

- أيها الأحق! أمنية قلبي! أتستطيع أن تهبني الانتقام من أعدائي؟ أتستطيع أن ترد عليّ الشباب والجمال والمرح؟ أتستطيع أن تعيد الموتى إلى الحياة؟ وكان "أكيل بوارو" يحدجها بعينه فقال:

- ما الذي تريدينه من هذه الثلاثة يا سيدتي؟ اختاري ما شئت. فقهرت "الكونتيسة" ساخرة وقالت:

- لعلك تبيعني إكسير الحياة؟ سأعقد معك صفقة، كان لي ولد، أحضر لي ولدي تصبح حراً!

- قبلت يا سيدتي وسيرد إليك ولدك، وأقسم لك على ذلك بشرف "هركيول بوارو" نفسه. وضحكت هذه المرأة العجيبة طويلا ثم قالت:
- لقد نصبت لك شركا صغيرا يا عزيزي السيد "بوارو"، إنه لكرم منك أن تعد بإعادة ولدي إليّ، ولكنني أعلم أنك لن تنجح وأن هذه الصفقة ستكون من جانب واحد.

- أقسم لك يا سيدتي بملائكة السماء أنني سأرد عليك ولدك.
- لقد سألتك من قبل يا سيد "بوارو" هل تستطيع إعادة الموتى إلى الحياة؟
- إذن فإن الطفل...
- ميت؟ أجل. فتقدم إلى الأمام وقبض على معصمها قائلا:
- سيدتي... سأقسم لك مرة أخرى، سأعيد الميت إلى الحياة. وحدثت إليه المرأة مذهولة شاردة اللب، واستطرد قائلا:
- إنك لا تصدقيني ولكنني سأثبت لك صدق ما أقول، أحضري محفظتي التي أخذوها مني.

فغادرت الغرفة وعادت بالمحفظة وهي قابضة على مسدسها. وبدأ لي أن الأمل في مخادعتها ضعيف واه فما كانت الكونتيسة "روساكوف" بالغبية الحمقاء. وقال صاحبي:

- افتحيها يا سيدتي. الجيب الأيسر. أخرجني الصورة الفوتوغرافية وانظري إليها.
وأخرجت المرأة صورة لم تكد تنظر إليها حتى صاحت وهي تترنح ثم هرعت إلى صاحبي هاتفة:

- أين؟ سوف تخبرني...

- تذكرني صفقتك يا سيدتي.

- أجل... سأثقبك. أسرع قبل أن يعودوا.

وقبضت على يده وأسهرت به خارجة من القاعة وأنا في أثرهما، وأفضت بنا من القاعة الخارجية إلى النفق الذي دخلنا منه، ولم يكن الحصار الذي ضربه "بوارو" حديث خرافة، فما كدنا نبرز حتى انقض علينا ثلاثة رجال ولكنهم ارتدوا عنا في

عجب فصاح صاحبي :

- أسرعوا أسرعوا... ليس أمامنا سوى دقيقة واحدة. ولكنه لم يتم عبارته، فقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا زلزلا شديدا وسمعنا دويًا هائلا يصم الأذان، وبدا لنا أن الجبل ينهار انهيارا، وقذف بنا عنف الانفجار في الهواء. عدت إلى الرشد فالفيت نفسي في فراش غريب وغرفة غريبة، وكان بجانب النافذة شخص انثنى إليّ ووقف أمامي، وكان "أكيل بوارو"... لكن أهو كذلك حقًا؟ وسرعان ما تبددت شكوكي أمام ذلك الوجه الساخر المألوف وقال:

- أجل... هذا أنا يا صديقي، أما الأخ "أكيل" فقد عاد إلى موطنه... إلى أرض الوهم والخيال، لم يكن ثمة سواي، وليس رقم 4 هو الذي يحسن وحده التقليد والتمثيل، وإن هو إلا قليل من البلادونا في العينين، والتضحية بشاربي، وذلك الجرح الحقيقي الذي كلفني إحداثة ألما شديدا منذ شهرين، فما كان بوسعي أن أخدع رقم 4 بجرح زائف...

- لكن لماذا لم ترسل شخصا آخر ينتحل شخصيتك؟
- وأتركك تتعرض للخطر دون أن أكون بجانبك؟ ثم إنني كنت أعلم دائما أنني سأهتدي إلى سبيل للنجاة بواسطة الكونتيسة "روساكوف"...
- وكيف استطعت إقناعها بتلك القصة الواهنة عن ولدها الميت؟
- إن "الكونتيسة" أصدق منك فراسة يا عزيزي.
- وتلك الخرافة عن إعادة الميت إلى الحياة؟
- كنت صادقا كل الصدق.
- كيف؟

- أجل... إنك تعرف الشعار المشهور: "كن مستعدًا" فما كدت أعلم أن الكونتيسة "روساكوف" على صلة بـ"الأربعة العظام" حتى بحثت في ماضيها كله، وعلمت أنه كان لها طفل قبل لها إنه قتل، ولكني وجدت في القصة التي رويت عن مقتله ثغرات حملتني على الشك في صحتها والظن بأن الطفل قد يكون على قيد الحياة.. ونجحت أخيرا في تتبع آثاره وحصلت عليه لقاء مبلغ كبير من

المال ... وكان الطفل في حال يرثى لها من الجوع والحرمان، فعهدت به إلى قوم صالحين في مكان أمين، وأخذت له صورة في بيئته الجديدة، ولما حانت الساعة كنت على أتم الاستعداد للعبتي المسرحية.

- إنك لعجيب يا "بوارو" ...!

- ولقد طابت نفسي بما فعلت فإنني أحب "الكونتيسة" وكان يسوؤني أن تهلك في الانفجار.

- وإلام صار رجال العصابة؟

- لقد اكتشفت الجثث كلها، لكن شخصية رقم 4 لم يمكن التحقيق منها إذ تفتت رأسه، وكنت أود ألا يحدث ذلك حتى نكون على ثقة بموته، وحسبنا ذلك ... والآن اقرأ ...

وأعطاني صحيفة بها فقرة كانت تروي نبأ انتحار "لي تشانج ين" الذي دبر الثورة الأخيرة التي فشلت فشلا ذريعا.